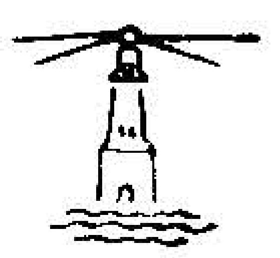
مصطفى محمود

من أسرار القرآن

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

لماذا خلق الله الحشرة ؟



سئلت ذات مرة . . لماذا خلق الله الحشرة ؟ ؟ ! !

ولقد فكرت حين ذاك وقلت في نفسي ربما لو أخذنا رأى الحشرة لقالت . . ولماذا خلق الله الإنسان . . ؟

ولو تأملنا الكون لوجدنا أن الله خلق لكل شيء آفة تعتدى عليه .

خلق القطن وخلق دودة القطن

وخلق النبات وخلق الجراد

وخلق الأسنان وخلق سوس الأسنان

وخلق العين وخلق الرمد

وخلق الأنف وخلق الزكام

وخلق الثمرة وخلق العفن

وخلق الحديد وخلق الصدأ

وخلق الإنسان وخلق معه جيشاً من الأعداء لاغتياله من بق وبراغيث وبعوض وذباب وديدان وميكروبات وسل وجذام وتيفوس وكوليرا .

والله لم يحاول إخفاء هذه الحقيقة وإنما أعلنها في كتابه على أنها أمر مراد مقصود . فقال جل شأنه .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ » ٤ — البلد

اى فى مكابدة وعناء . . **فالله لم يرد بالدنيا أن تكون دار سلام وإنما أرادها أن تكون دار عناء وكفاح وشد وجذب بين أضداد . . أراد أن يمتحن كل شىء فيسلط عليه ضده . وأن يبتلى كل شىء بنقيضه .**

ونعود فنقرأ فى القرآن إشارة إلى هذا الناموس الذى جعل من الدنيا محلاً لتدافع المتناقضات .

يقول ربنا تبارك وتعالى فى كتابه :

« وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ » .

٢٥١ — البقرة

وتتكرر الإشارة فى مكان آخر بنفس الألفاظ :

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً » . ٤٠ — الحج

وتكرار الإشارة يدل على الأهمية ولفت النظر .

والله يشرح لنا فى الآيات أسرار حكمته فى هذا الناموس العجيب ، فهو يدفع بالأقوياء بعضهم على بعض ويكسر الجبابرة بجبابرة من جنسهم ليستطيع الضعفاء أن يعيشوا ويمارسوا العبادة فى صوامعهم ومساجدهم . . فهذا القانون مظلة أمان تحمينا من جبروت الجبارين لأن الله يستنفد طاقتهم فى ضرب بعضهم بعضاً .

ومعلوم الآن فيما نرى من التاريخ أن هذا الأمر صحيح تماماً فى الأفراد كما أنه صحيح تماماً فى الأمم فهذه أمريكا تتضخم وتتعملق فى القوة وتملك القنبلة الذرية ثم الهيدروجينية فيدفعها الله بروسيا ويسهل لها هى الأخرى امتلاك القنبلة الذرية ثم الهيدروجينية . . ومن انشغال القوتين الكبريين بصراعهما بعضهما بعضاً نستطيع نحن دول العالم الثالث أن نتنفس ونعيش . . بل نستطيع أن

نغازل الاثنتين ونستفيد . . ولو أن روسيا كانت انفردت بالعالم لأهلكته . . ولو أن أمريكا كانت انفردت بالعالم لأهلكته ولكن رحمة الله دفعت بالقوتين العظميين بعضهما ببعض ، بل الأمر العجيب أنه حينما بدأت القوتان الكبريان روسيا وأمريكا تتقاربان وتتعايشان أظهر الله الصين هائلة عملاقة على المسرح وسلمها مفاتيح الذرة ثم دفع بها نقيضاً يستنزف الروس والأمريكان معاً .

قانون ثابت يعمل فى الفرد والمجتمع والطبيعة والتاريخ هو دفع المتناقضات بعضها ببعض . .

والله يقول لنا إن هذا القانون مرتبط بصلاح الأمور فى الأرض ولولاه لفسدت الأرض .

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ » .

٢٥١ — البقرة

وهذا القانون يعمل منذ بدء الخليقة ، منذ أن أهبط الله آدم إلى الأرض .

« وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » . ٣٦ — البقرة

تقررت السنة الإلـهية من البداية « بعضكم لبعض عدو » ثم هى سنة عامة ، فالله يضرب الأضداد بعضها ببعض فى كل شىء ، فى المادة وفى الفكر .

« كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الأَرْضِ » . ١٧ — الرعد

وبذلك يمحص الأفكار كما يمحص الأفراد فيبقى على الصالح ويقضى على الفاسد .

.. سلم الأنبياء من هذا القانون .

« وكذلك جعلنا لكُلِّ نبيٍّ عدُوًّا شياطِينَ ٱلْإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا » .

١١٢ – الأنعام

« وكذلك جعلنا لكُلِّ نبيٍّ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا »

٣١ – الفرقان

ذكر القرآن هـذا القانون وحدده لأكثر من ألف وثلاثمائة سـنة قبـل أن يتـكلم عنه هيجل موسعاً تحت عنـوان Dialectical Idialism او المنطق الجدلى المثالى . . وكان فى ظن هيجل أن هذا القانون يعمل فقط فى عالم الفكر . . ثم جاء ماركس ليقع فى ضلال آخر فيتصور أن القانون يعمل فى المادة وأنه جدل مادى وأعطاه اسم Dialectical Materialism أو المنطق المادى الجدلى ثم وقع ماركس فى خطأ ثان متصوراً أن القانون يعمل بذاته وأنه هو الذى خلق من المادة كل صور الحياة من نبات وحيوان وإنسان ، ثم وقع فى ضلال ثالث فأخذ يلفق من هذه الآراء مذهباً يسخره للأهواء السياسية والأغراض بتحريض الفقراء على الأغنياء والعمال على أصحاب الأعمال فيما يسمى بفلسفة الصراع الطبقى .

وكل هذه الأخطاء لا نجدها فى القرآن الذى أشار إلى القانون منذ ألف وأربعمائة سنة . . فالقرآن يعلمنا أولا أن هذا القانون شامل لا هو مادى كما يقول ماركس ولا مثالى كما يقول هيجل . . ثانيا . . أن هذا القانون مخلوق وليس خالقاً . . فهو مجرد أداة فى يد الله يصلح بها حياة خلقه ويحرك بها الأحداث نحو توازن محمود بين مختلف القوى لكيلا يطغى طرف على طرف .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

٢٥١ - البقرة

إذن الله هو الذى يدفع والله هو الذى يجرى القانون .

الله أولا والله أخيراً .

الله هو الحقيقة الأولى . . والقانون الجدلى مجرد سبب . . مجرد أداة مخلوقة مسخرة تعمل بمشيئته وتصريفه ، هذا هو جلاء الأمر فى موضوع المنطق الجدلى الذى تدور حوله معارك الفلسفة والسياسة اليوم . . أنزله الله على قلب محمد عليه الصلاة والسلام منذ ألف وأربعمائة سنة .

وما أكثر ماسمعنا الصوفيين ينشدون فى أشعارهم :

أن العناصر مجمع الأضداد
يخفى الظلام بها دوام جهاد

ونقرأ لمولانا الإمام الصوفى أبو العزايم يصف الروح والجسد . . بأنهما « كالثلج والنار قد جمعا برحمته » . . الشىء وضده . . الشىء ونقيضه . . ابتلى الله الروح بالجسد كما جمع بين الإلكترون السالب والبروتون الموجب فى ذرة العنصر (إن العناصر مجمع الأضداد) .

ويقول أبو العزايم عن نفسه :

مجمع الأضداد ختمى أولى

أى من الله جئت وإلى الله أعود (ختمى أولى)

ثم يعود إلى نفس المعنى فى بيت آخر

لـوح آيـات التجلى هيكلى   جامع الضدين ختمى أولى

فهذه النظرة الجدلية الديالكتيكية كانت عندنا قديمة .

والشاعر عندنا يقول :

لكل شىء آفـة من جنسه   حتى الحديد سطا عليه المبرد

ثم يشرح لنا القرآن وجهاً آخر من وجوه الحكمة فى هذا الناموس الجدلى هو تحقيق التوازن وبلوغ صراط الاعتدال الذى يسميه بالصراط المستقيم

والصراط المستقيم فى القرآن هو الوسط العدل متزن بين نقيضين ، هما : الإفراط والتفريط

بين البخل والإسراف الصراط المستقيم هو الكرم

وبين الجبن والتهور هو الشجاعة

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً »

٦٧ — الفرقان

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ».

٢٩ — الإسراء

ويصف أمة الإسلام بأنها أمة الوسط (أهل الاعتدال)

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ».

١٤٣ — البقرة

والمسلمون شهداء على الناس لأن عندهم المعيار الصدق الذى يحكمون به على جميع أهل التطرف من كل الملل والمذاهب (مثل المتر الذى يقيس الطويل والقصير) .

والوسط العدل فى الإسلام ليس مجرد وسط حسابى وإنما هو وسط تركيبى انتقائى جدلى . . فالكرم ليس وسطاً حسابياً بين البخل والإسراف وإنما هو وسط انتقائى يضم أحسن ما فى البخل (وهو الحرص) إلى

أحسن ما فى الإسراف (وهو المبادرة والبسط) ثم هو يضيف إلى هذه الصفات مزيداً من صفات أخرى مثل العقل والسداد وحسن الاختيار ليؤلف الكرم . .

وبالمثل نرى أن الشجاعة ليست وسطاً حسابياً بين الجبن والتهور . وإنما هى وسط انتقائى تركيبى جدلى ، فهى تأخذ من الجبن صفة الحذر ومن التهور صفة الإقدام ثم هى تضيف مزيداً من صفات الثبات وسلامة الهدف والإصرار لتؤلف الشجاعة .

وبالمثل نقول إن الصراط الإسلامى ليس وسطاً حسابياً بين اليمين الرأسمالى واليسار الشيوعى ، وإنما نرى فى الإسلام تركيباً انتقائياً جدلياً يأخذ من اليمين أحسن ما فيه ومن اليسار أحسن ما فيه ثم هو يتجنب مساوئ النظامين ، ثم هو يعطى إضافة من النعمة الروحية والإشباع الروحى يمنح المسلم سنداً من الغيب وخلوداً فى الجنة . . فهنا شىء جديد متفوق وليس مجرد وسط حسابى بين اشتراكية ورأسمالية ، وإنما نظام يشمل الاثنين ويفوق الاثنين ويسبق الاثنين (فالإسلام سابق على الاثنين بألف سنة) .

وكما نجد فى القرآن أسس المنطق الجدلى الذى يقوم على التوتر والتناقض وصراع الأضداد . . المنطق القائل بأن فى كل شىء جرثومة فنائه (كل شىء هالك إلا وجهه) . . كذلك نجد فى القرآن أسس المنطق الصورى ، وهو المنطق الأرسطى القائل بدوام الأشياء وثباتها واستمرارها . . ولكن القرآن يقصر هذا المنطق على الإلهيات . . فلا ثبات ولا دوام إلا لكل ما هو إلهى . . مثل السنن والقوانين الإلهية .

« فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً » .

٤٣ — فاطر

وكذلك الذات الإلهية أو الوجه الإلهى .

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ». ٨٨ – القصص

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .
٢٦ – ٢٧ – الرحمن

ولعل هنا من يشطح به ذهنه فيتصور على الله شبهة ظلم إذ خلق الإنسان فى كبد وسلط عليه المرض والميكروب والحشرة وسلط بعضه على بعض . : تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً .

وتصحيح الأمر أن الله خلق الداء ولكنه أيضاً خلق الدواء (فى شراب الينابيع وفى الأعشاب وفى عناصر الأرض تحت أقدامنا) وخلق العقل لنستدل ونستكشف ونعرف كيف نتداوى ونبرأ من أمراضنا .

وحينما شكا أيوب لربه ما أصابه قائلا :

« أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ». ٤١ – ص

قال له ربه :

« ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ». ٤٢ – ص

فالله خلق السم والترياق . . ثم أنه سبحانه جعل فى هذا التحدى العدوانى المستمر مصلحة ومنفعة . . إذ أن سم الميكروب يحفز النسيج الحى إلى الاحتشاد كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين . . وبذلك جعل الله من عدوان الطبيعة حافزاً مستمراً لمخلوقاته لتحتشد ولتبتكر ولتبدع أحسن ما تختزن من طاقات فتكون بذلك دائماً على أكمل صورة . .

ومن الصراع بين الجسم والميكروب تنشأ الحصانة والمقاومة .

ولو أن الحياة الدنيوية سلمت من الأعداء وأخلدت إلى الراحة والأمن والدعة لترهلت وتخنثت وضعفت وانقرضت . . وهو المصير

المألوف الذى نشاهده فى الأفراد كما نشاهده فى الأمم حينما تخلد إلى الترف والملذات . . ولهذا يغرس الله الأشواك فى الأمم لتخرج منها الورود . . وهذا هو ما حدث عندنا . . حينما تخاذلت الأمة العربية وانقسمت واختلفت وأنهكها الترف غرس فى وسطها شوكة اسمها إسرائيل لتحفزها إلى الوحدة حفزاً وتضطرها إلى اصطناع القوة والحديد والعضلات والتكنولوجيا لتواجه تحدى الموت . . وحينما شدت أمريكا أزر إسرائيل بالسلاح فجر الله عندنا البترول والمال العربى وينابيع الطاقة وفتح أمامنا ترسانات عدة للسلاح عن يمين وشمال . .

سنن كونية تعمل وقوانين أزلية تجرى فى خفاء واستمرار وتعمل دائبة على حفظ التوازن العجيب المعجز للمخلوقات ، حتى يتقوى الضعيف ويضعف القوى ، وحتى لا تطغى قوة على قوة ، ولا تبتلع حضارة حضارة ، ولا يفنى نوع من الأحياء نوعاً آخر .

تجد أمثلة لذلك فى عالم الحشرات وفى عالم النبات وفى عالم الإنسان وفى الطبيعة . . كلما تكاثرت حشرة وتجاوزت معدلاتها أوجد لها الله عدوًا طبيعيًا يلتهمها ليعود التوازن إلى البيئة ولتجد جميع المخلوقات فرصاً متكافئة للحياة . . وهذا ما نراه فى جنوب السودان حيث يتوالد البعوض بكثرة هائلة فى الأماكن الموبوءة بالملاريا فتظهر له حشرة مضادة هى الحباحب المضيئة التى تغطى الأشجار بالملايين وتضىء لتجذب البعوض وتأكله .

وحينما تدخل الإنسان بالمبيدات الحشرية فإنه أخل بهذا التوازن الدقيق وأدى بتدخله إلى كارثة تلوث البيئة . . وذلك لأن المبيدات قتلت الحشرات ، وقتلت الطيور التى تأكل الحشرات ، ولوثت الحشائش

والمزروعات ، وأمرضت البهائم التى ترعى هذه الحشائش ، ثم أمرضت الإنسان الذى يأكل لحوم تلك البهائم ، كما لوثت مجارى الماء وقتلت الأسماك ، فافسدت البيئة كلها وأتلفت علاقاتها بضربة واحدة .

ثم أنها قتلت الحشرة الضارة والحشرة المفيدة معاً .

وهذا هو الفرق بين الحكمة الإلّهية والحماقة البشرية وبين علم الله الشامل وعلم الإنسان المحدود .

كيف يتصرف الله بحكمته فى فضلات الحيوان والنبات ؟ ! . .

نحن نرى مثلا نادرا من العلاقة المتبادلة المنسجمة المتناغمة . . الفضلات التى يخرجها الحيوان يستخدمها النبات كسماد وغذاء نافع مفيد . . وفضلات التنفس التى يخرجها الحيوان وهى ثانى أكسيد الكربون يستخدمها النبات فى بناء نشوياته بالتمثيل الكلوروفللى . . ثم ما هى الفضلات التى يلقيها النبات فى الجو بعد هذه العملية الحيوية . . إنها الأكسوجين الذى يلتقطه الحيوان والإنسان فى نهم وعطش ليتنفس به ويعيش . . علاقة متبادلة غاية فى الدقة والانضباط ، ما يستغنى عنه طرف يحتاج إليه الطرف الآخر . . كل منهما يكمل الآخر فى رحلة الحياة . . وهكذا يستفاد من جميع المخلفات . .

وفى المقابل ماذا يفعل الإنسان بعلمه وعقله . . وكيف يتصرف فى فضلاته . . إنه يلقى بآلاف الأطنان من مخلفات المصانع الكيماوية من مواد كبريتية ضارة ومهلكة فى مجارى الماء فيلوثها . . والسفن تلقى بالزيوت والشحوم على الشواطئ فتتلفها . . وفضلات المصانع الذرية تذهب إلى البحر وتنشر معها الموت أينما حلت . . والغبار الذرى المتخلف من التجارب تحمله الرياح فى الجهات الأربع . . ولا يعلم إلا الله ماذا

سيفعل بنا وبالأجيال المقبلة من عاهات وأمراض وتشوهات .

الله ينشر النظام والانسجام بقوانينه وسننه .

والإنسان ينشر الاضطراب والفوضى والتلوث بعقله وعمله .

وما أجمل القرآن حينما يلخص هذه الحكمة الإلّهية فى كلمات .

« خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ». ٢ – الفرقان

« إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . ٤٩ – القمر

« قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْراً » ٣ – الطلاق

« وَأَنْبَتْنَا فِيهَا (أى فى الأرض) مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ». ١٩ – الحجر

« وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ». ٨ – الرعد

والأرض كمثال قدرها الله بمقدار فى الكتلة والحجم والبعد المكانى عن الشمس . . لو كانت أبعد لماتت الأحياء عليها من البرد ولو كانت أقرب لاحترقت من حر الشمس . . ولو كانت الأرض أصغر حجماً وكتلة لفقدت جوها وماءها (بسبب ضعف الجاذبية كما هو حال القمر) ولأصبحت الحياة مستحيلة . . ولو كانت أكبر حجماً وكتلة لتضاعفت الجاذبية ولتضاعف وزن الكائنات عليها ولما استطاعت الحركة . .

وقل ذلك فى موقع كل نجم فجميع الأجرام السماوية مرتبطة ببعضها البعض ارتباط الحبات فى مسبحة .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ » . ٧٥ – الواقعة

والله جعل لكل حركة إيقاعاً فى الزمان والمكان . . يؤخر ويقدم ويبدئ ويعيد بمقتضى الحكمة العالية التى لا يحيط بها عقل . . ومن أسمائه أنه

المقدم والمؤخر والمبدئ والمعيد والعليم والحكيم والمحيط والكبير والمتعال . . المتعال على جميع الأفهام وعلى جميع العقول . . فهو المحيط الذى لا يحاط به . . سبحانه هو البديع فى كل ما خلق وأنشأ وصور .

وما أبدع وأحكم ما صنع بهذا الناموس الذى خلق به الإنسان والحشرة .

لغز الزمن فى القرآن

الله لا يجرى عليه طارئ الزمان فهو غير متزمن بالزمان مثلنا ، وليس له يوم وليلة وحاضر وماض ومستقبل وهو لا ينصرم ولا يتغير ولا يتطور ولا يشيخ ولا يكبر ولا يبدأ ولا ينتهى . . وحينما يصف القرآن الله بأنه « الأول والآخر » . . فإن الأولية المقصودة ليست أولية زمانية كما ان الآخرية ليست آخرية زمانية فالله ليس عنده « قبل ولا بعد » فالزمن كله مخلوق مع الكون والله كائن قبل مخلوقاته وباق بعد فنائها فهو موجود قبل الزمان وبعده لأنه خارج عن الزمان وأوليته وآخريته غير زمانيتين .

الله يحيا فى « الآن الإلهى » والحضور المستمر السرمدى ونحن نحيا فى الأمس واليوم والغد .

. . أما قصة التاريخ وما اشتملت من أحداث وتفاصيل فكانت عند الله مجملة فى أم الكتاب قبل الخلق فى العلم الإلهى وفى « الآن الإلهى » الذى أجملت فيه كل التفاصيل .

وحينما يقول الله لموسى :

« وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ». ٥ – إبراهيم

فإن المقصود بذلك الأيام التى أقامها الله فى الأرض عبرة للناس مثل كارثة الطوفان وعاد وثمود ولوط ، فتلك كانت أياماً حاسمة تغير

عندها التاريخ ، وعلينا دائماً أن نتذكرها ونخرج منها بالعبرة .

والمستقبل بالنسبة لله حدث فى علمه وانتهى وكل ما سوف يأتى فى الغد القريب والبعيد بالنسبة لله تحصيل حاصل . . ولهذا نجد الله يصف أحداث يوم القيامة بالفعل الماضى مع أنها مستقبل .

« وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ». ٩٩ – الكهف

« وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فى الْأَرْضِ ».
٦٨ – الزمر

« وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا » .
١٦ – الحاقة

« وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ » ٩١ – الشعراء

« وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً » ٤٨ – الكهف

« وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفا » . ٢٢ – الفجر

« أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » ١ – النحل

كل تلك الأحداث المستقبلية يصفها الله بالفعل الماضى ، وذلك لأن الله متعال فوق الزمان والمكان وهو قد أجرى الزمن على مخلوقاته ولكنه تنزه سبحانه عن جريان الأزمنة عليه . . فكل شىء بالنسبة لعلمه قد حدث .

ثم نفهم من بعض ما كشف القرآن من أسرار أن الله أقام لكل نوع من مخلوقاته زمناً مختلفاً . فالروح وهو ملك عظيم مقرب يومه بخمسين ألف سنة من زماننا . . نفهم ذلك من الإشارة القرآنية .

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ».
٤ – المعارج

بينما الملائكة الآخرون (ملائكة التدبير والتصريف) يومهم بألف

سنة من زماننا . . فيصف القرآن أحد هؤلاء الملائكة المدبرة .

« يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » . ٥ – السجدة

وفى إشارة أخرى يتكلم عن هؤلاء الملائكة (ملائكة العندية الذين عند ربك) .

« إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » . ٤٧ – الحج

فإذا مات الإنسان وبعث فإنه يخرج من تقويم زمنى إلى تقويم زمنى آخر ، ولذلك يخيل إليه أن ألوف السنين التى لبثها فى القبر وفى الدنيا كانت يوماً واحداً أو ساعة زمان .

« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فى كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

٥٥ – ٥٦ – الروم

وفى آية أخرى :

« كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ » ٣٥ – الأحقاف

يقول الله إن هذا بلاغ منى أخبركم به من الآن عن هذه المفاجأة التى سوف تصدمون بها يوم البعث .

وفى آية أخرى يصف تصور الكفار للسنين التى عاشوها فى الدنيا . . وكأنها ساعة . .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ».

٤٥ – يونس

ويسأل السائل هؤلاء الخلق المبعوثين .

« كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ».

١١٢ – ١١٣ – المؤمنون

إن أحقاب اللبث الطويل فى الأرض وفى الدنيا تبدو لحظة البعث وكأنهـــا كانت يوماً أو بعض يوم أو ساعة لأن الإنسان ينتقل من تقويم زمنى إلى تقويم آخر مختلف تماماً (اليوم فيه ربما بألف سنة أو بخمسين ألف سنة) .

ونحن نستطيع أن نفهم الآن قضية تعدد الأزمنة فى ضوء النظرية النسبية والعلم الحديث . . فالقانون العلمى يقول لنا الآن إن كل نظام حركى له تقويم زمنى خاص به ، فالشمس وكواكبها نظام حركى له زمنه الخاص به ، فإذا خرج رائد الفضاء من أقطار هذا النظام الحركى وذهب إلى مجموعة نجمية فى مجرة أخرى فإنه يدخل فى تقويم زمنى مختلف مستمد من نظامه الحركى الجديد . . وهذا القانون يفسر لنا اختلاف التقويم الزمنى بين البشر والملائكة وبين الملائكة الأرضية والملائكة المقربين .

ثم يعلمنا القرآن أن الله قاهر على الزمن يستطيع أن يقبض المائة سنة عن مخلوقاته فتصير يوماً أو يمدها فتكون مائة سنة دون أن تبرح مكانها ودون أن تغير نظامها الحركى . . وتلك هى المعجزة التى أجراها على نبى التوراة عزرا الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه .

ويصف القرآن القصة قائلا :

« أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

٢٥٩ – البقرة

وما حدث أن الله قبض المائة سنة عن طعام عزرا فاحتفظ بصلاحيته ولم يتلف ولم « يتسنه » ، وكأنما لم يمر بالنسبة له زمن بينما مد الزمان للحمار فهلك وتحلل وأصبح رمة ثم أعاد الله تركيبه وبعثه حيًّا أمام عزرا .

وهى آيات تكشف عن سلطان الله القابض الباسط للزمان دون تقيد بنظام حركى أو مكان .

وهو نفس ما حدث بالنسبة لأهل الكهف الذين قبض الله عنهم الزمن فمرت بهم ثلاثمائة سنة وهم نيام لا يطرأ عليهم طارئ .

« فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ». ١١ – الكهف

« وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً » .

١٨ – الكهف

« وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً » .

٢٥ – الكهف

وعندما ايقظهم الله وتكررت نفس الظاهرة .

« قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ».

١٩ – الكهف

لأنهم خرجوا من القبض الزمنى إلى البسط الزمنى فاختلفت أمامهم المعايير واشتبه عليهم الأمر .

ثم نقرأ فى القرآن إشارة أخرى تكشف لنا سراً آخر من أسرار الزمان وترينا علاقة الخالق بالأزمنة المتعددة التى يخلقها فتصف سورة الرحمن علاقة الله بخلقه .

« يَسْئَلُهُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فى شَأْنٍ » .

٢٩ – الرحمن

فالله بالرغم من تعاليه ومفارقته بالرتبة والمنزلة لخلقه إلا أنه بلطفه وعنايته معهم جميعاً على اختلاف وتفاوت أنظمتهم الزمنية . . فالكل يسأله . . أهل السموات ويومهم بألف سنة ومنهم من يمتد يومه إلى خمسين ألف سنة وأهل الأرض ومنهم البشر ويومهم أربع وعشرون ساعة ومنهم مخلوقات متناهية فى الصغر فى نواة الذرة يومها جزء من مائة مليون جزء من الثانية . . والكل يسأل الله . . والله معهم جميعاً يستجيب لهم جميعاً سواء من دق يومه إلى اللاشىء أو طال إلى أبدية لا يشغله شأن عن شأن وإنما يعين الكل ويجيب الكل فى ذات الوقت وذات الآن .

« يَسْئَلُهُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فى شَأْنٍ ».

٢٩ – الرحمن

فسبحان من لا يشغله آن عن آن ولا شأن عن شأن .

ونحن كبشر يمكن أن يكون لنا تذوق وفهم لهذه المراتب الزمنية ذات التقويم المتعدد حتى من قبل أن نخرج من دنيانا بالموت . . فالواحد منا يشعر أنه يمكن أن يحيا فى زمن اللحظة والساعة وهى حياة الشهوات والنزوات والمنافع العاجلة والمشاعر المادية الغليظة والواقع الأرضى الفج ،

وتلك هى حياة القلق والتوتر والفرح الوحشى والندم القاتل والفوت الباعث للحسرة وذلك لأن « الآن » متفلت « واللحظة » هاربة والحياة معها تكون طراداً مستمراً وقلقاً دائماً وكدحاً دائباً فى سبيل لا شىء ، وتلك هى حياة الشهوانيين الذين يصطرعون ويقتتلون ولا يعرفون للسكينة طعماً ولا للهدوء حالا فهم حطب لنار الشهوات فى الدنيا وحطب لنار جهنم فى الآخرة .

ويمكن للإنسان أن يعيش أيضاً فى مرتبة أعلى فيخرج من زمن الشهوة إلى زمن العقل ويعيش فى تأمل وسكينة وهدوء .

كما يمكن أن يرتفع إلى منزلة أعلى فيعيش كالصوفية فى تسرمد روحى مع الواحد وذلك بالخروج تماماً من هموم الدنيا ورغباتها وترك عالم التعدد والشتات إلى جمعية قدسية مع الله فيشم رائحة الجنة وهو ما زال على الأرض .

وذلك يعطى إدراكاً تقريبيًّا للأمر بالتذوق كما تعرف الأشياء بروائحها قبل أن تباشر بالأكل .

جعلنا الله وإياكم من أهل التذوق حتى نعرف الحقائق ذوقاً وشهوداً وندرك الأمور على ما هى عليه قبل أن نفاجأ باليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون . . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . . يوم تنتهى المعذرة وتتشخص الأعمال حاضرة . . لا تنفع فيها تذكرة .



التآمر على الأديان



من يقرأ التراث اليهودى يشعر أن جميع المؤامرات على الأديان وجميع الانقلابات المخربة والثورات على القيم والمبادئ خرجت من هذا التراث . . وأن كل معول هدم كان وراءه توجيه يهودى .

ودعونا نتأمل هذه الوصايا التى تفيض بها صفحات التلمود والبروتوكولات

* تذكروا أن الشعب الذى لا يهلك غيره يهلك نفسه .
* يجب أن نخلق الجيل الذى لا يخجل من كشف عورته (ألا تفسر لنا هذه الجملة موجة العرى فى الأفلام والموضات التى تسود العالم الآن) .
* علينا أن نشعل حرباً بين الشعوب ونضرب الدول بعضها ببعض فبهذا يصبح جميع المتحاربين فى حاجة إلى أموالنا فنفرض عليهم شروطنا .
* الجماهير عمياء فاشتروها بالمال وسوقوها كالبهائم إلى أهدافكم .
* سيطروا على الانتخابات ووسائل الإعلام والصحافة (وهم قد سيطروا عليها بالمال والجنس والمرأة فى الغرب الرأسمالى وبالحزب والسلطة فى العالم الاشتراكى) .
* ادفعوا الجماهير العمياء إلى الثورة وسلموهم مقاليد الحكم ليحكموا فى غوغائية وغباء (وقد فعلوا هذا فى الثورة الفرنسية) وحينئذ نأتى نحن ونعدمهم فنكون منقذين للعالم (وقد أعدموهم جميعاً من روبسبير إلى ميرابو) .

* ارفعوا شعار الحرية واهدموا بها الأخلاق والأسرة والقومية والوطنية .
* ارفعوا شعار العلم واهدموا به الدين . . وهذا ما فعله كمال أتاتورك (حفيد مزراحى) حينما أقام الدولة العلمانية فى تركيا ووقف يخطب فى البرلمان التركى عام ١٩٢٣ ساخراً من القرآن .

نحن الآن فى القرن العشرين ولا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع يبحث عن التين والزيتون .

* الذى يعرقل مؤامراتكم أوقعوه فى فضائح ثم هددوه بكشفها (وقد فعلوها فى ووترجيت) أو فى مآزق مالية ثم تقدموا لإنقاذه (وقد فعلها دزرائيلى مع الخديو واستولى على القنال) . . وإذا تعذر الأمر سارعوا إلى اغتياله (وقد فعلوها بكنيدى) ثم اقتلوا قاتله لتدفنوا أسرارنا معه إلى الأبد (وقد فعلوها بقاتل كنيدى) .
* اقتلوا القوميات والوطنيات بالدعوة إلى الأممية والمواطنة العالمية وقد فعلها ماركس فى الشيوعية .
* كل ما عدا اليهود حيوانات ناطقة سخرها الله فى خدمة اليهود .

واليهودية ترى أن الله واحد ولكنها تحتكره لنفسها فلا عمل لله إلا الحفاظ على إسرائيل وتسخير جميع الشعوب لخدمتها .

واللاهوت اليهودى لا يؤمن بآخرة ، وقد شطبوا كل ما جاء عن الآخرة فى التوراة . . والقيامة عندهم هى قيامة دولتهم فى فلسطين والبعث بعثها والنشر نشرها . . ويوم الحساب هو اليوم الذى يحاسبون فيه كل الأمم يوم يعود المسيح ويباركهم ويختارهم نواباً له فى حكم العالم وإقامة ملكوت الله على الأرض . . والعجيب أنهم كفروا بالمسيح حينما جاء ثم أعلنوا إيمانهم بعودته وشرطوا هذه العودة بأنها رجعة من المسيح ليختارهم

رؤساء وحكاماً للعالم إلى الأبد .

والفكر اليهودى يلقى غلالة من الأسرار والطلاسم والكتمان والغموض على كل شىء . . والكبالا والسحر وعلم الأعداد والحروف وتسخير الشياطين من علومهم التى شغفوا بها وروجوها ونشروها .

وكانت وسيلتهم إلى هدم الكتب السماوية هى تفسيرها بالتأويل وذلك برفض المعانى الظاهرة واختراع معان باطنية تهدم الغرض الدينى وتفسد هدفه .

ونستطيع أن نرى أثر التوجيه اليهودى فى الفلسفات العبثية والعدمية والمادية والفوضوية والإباحية . . وأحياناً نلمح أسماء يهودية خلفها مثل : سارتر – فرويد – ماركس – ماركوز .

وإذا فتحنا ملف الديانة البهائية فإننا نجد أثر التوجيه اليهودى واضحاً فى كتبها .

عبد البهاء تأليف سليم قبعين القاهرة مطبعة العمران ١٩٢٢ .

بهاء الله والعصر الجديد بروفسور ج . أ . اسلمنت .

مفاوضات عبد البهاء الطبعة الأولى ١٩٢٨ م . موعود كل الأمم . جورج تاوزنه مطبوع بإذن من المحفل الروحانى لمصر والسودان .

وتلتقط العين سطوراً عديدة فى هذه الكتب توحى بمصادرها المريبة . . أمثال :

* أكثر فلاسفة اليونان تعلموا الحكمة من بنى إسرائيل .
* رسالة عبد البهاء هى توحيد المسلمين والنصارى واليهود وجمعهم على أصل نواميس موسى .
* عمل موسى لا يساويه عمل فى التاريخ وسوف يأتى يوم لا يجد

الناس كتاباً ينقذهم إلا نواميس موسى .

ويطلق عبد البهاء على نفسه اسم (غصن) مشيراً بذلك إلى ما جاء فى التوراة (ويخرج غصن من جذع يسى أى ذرية داود يرفع العلم الإلهى على جميع الأمم) .

• ومجيء بهاء الله فى البهائية هو تعمير أورشليم حيث يستقبل مرفا حيفا ألوفاً من الرجال والنساء .

وقد أبطل عبد البهاء فكرة الجهاد الإسلامية واعتبرها منسوخة كما أبطل الشريعة الإسلامية وقال فى الصفحة ٦٤ من كتاب مفاوضات البهاء لم يبق لتلك الشريعة حكم ، ولهذا لا نعجب إذا رأينا القائد الإنجليزى يمنح عبد البهاء وساماً يعبر عن شكر الإمبراطورية البريطانية له حينما قابله فى حيفا عام ١٩١٧ .

ولهذا أقبل اليهود على البهائية منذ تأسيسها وحملوا رايتها . . ورأينا بعضهم يعيش العمر كله بهائياً ثم يوصى أن يدفن حين يموت فى مدافن اليهود .

(كتاب البابية والبهائية لمحمود الملاح)

ونرى وجه الشبه واضحاً فى ترجمة « استير » التى نقرأ عنها فى التوراة وترجمة « قرة العين » التى نراها فى كتب البهائية وكلتاهما مثلت دوراً متشابهاً فى بلد واحد .

• وقد دعا عبد البهاء إلى عقيدة التجسد وزعم نفسه إلهاً متجسداً وقال فى كتابه إلى أخيه يدعوه فيه إلى الولاية . . (هذا كتاب من الله المهيمن الحى القيوم إلى الله المهيمن الحى القيوم) صفحة ٣٧ الطبعة الثانية من كتاب البهائية . عبد الرزاق الحسنى صيداً مطبعة العرفان ١٩٣٠ .

• وتقسم البهائية السنة إلى ١٩ شهراً وتفسر القرآن بالتأويل ، فترى أن معجزة عيسى كانت إحياء النفوس وليس إحياء الأجساد كما أن موسى لم يشق بحراً بعصاه وإنما شق الحق من الباطل بعصا الشريعة ، كما أنه لا وجود للملائكة ولا لشياطين وإنما هى أسماء للخواطر الخيرة والخواطر الشريرة . . وبذلك تلغى معنى المعجزة وتنكر الغيب .

• كما نقرأ فى كتاب موعود كل الأمم صراحة أن الدين البهائى جاء لإعلان دولة دينية جديدة من شأنها أن تختم الأدوار السابقة وتعطل شعائرها وكتبها ونظمها .

وكما نلمس أثر التوجيه اليهودى وأثر الفلسفات الباطنية القديمة فى الديانة البهائية كذلك نلمس تلك الآثار فى جمعية السبتيين والمورمون وقديسى الأيام الأخيرة والخمسينين وجماعة شهود يهوه .

وقد بدأ شهود يهوه فى أمريكا باسم جمعية جلعاد . . ثم جمعية تلاميذ التوراة ثم انتشرت فى الوطن العربى باسم جمعية شهود يهوه . ومن أبرز أعضائها تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية . وتقول الجمعية إن العالم منذ ستة آلاف سنة فى خلاف مع يهوه (الله) وإنه قد حل الألف السابع وجاء دور الملكوت وهى الحياة فى وفاق مع الله . . وأخذ يهوه يساعد الذين اختارهم منذ الأزل ليسحق بأيديهم الأنظمة المنظورة ليقيم مملكة تخلد بخلود الأرض ويجعل الأرض فردوساً ويدمر جميع الأسلحة بعد معركة هرمجدون (وهرمجدون كلمة ذكرها يوحنا اللاهوتى فى سفر الرؤيا واعتبرها شهود يهوه رمزاً لمعركة فاصلة تقوم بعدها مملكة اليهود المعدومة الجيران) .

وهم لا يؤمنون بقيامة للإنسان بعد موته ولا قيامة إلا قيام مملكة إسرائيل

ولا بعث إلا بعثها ، أما خلود الروح فهو خرافة روجتها بابل الزانية .

ويعود المسيح ليسلم الحكم للقطيع الصغير (اليهود) أما الخطيئة الأصلية فقد انتهى مفعولها منذ أن بدأ نشاط تلاميذ التوراة (وهم دزرائيلى وهرتزل وحاييم ويزمان وغيرهم) وفى « الماسونية » نشاهد أثر التوجيه اليهودى أوضح وأظهر . نلاحظ هذا فى الرموز وكلمات السر الماسونية مثل :

بوعز (وهو أحد أجداد سليمان كما تقول التوراة سليمان بن داود ابن عيسى بن عوبيد بن بوعز) .

ياكين أو جكين : وهو ابن شمعون فى التوراة .

الرقم ٣ : وهو رمز ليهوه وموسى وهارون .

الهيكل : رمز هيكل سليمان .

عصا المرشد : رمز لعصا هارون التى زرعت فأثمرت لوزاً كما جاء فى سفر العدد .

كلمة ماك بناك : أى انسلخ اللحم من العظم رمزاً لانسلاخ الأتباع من أوطانهم وقومياتهم وأديانهم .

الميزان والخنجر : رمز بناء الهيكل بالعدل أو القوة .

نوخابيلم أدوناى : من مثلك يا إله الآلهة بالعبرية

نقام : نقام : الانتقام الانتقام .

والماسونية تدعى فى البداية احترام الأديان والقوميات وتضع المصاحف والأناجيل إلى جوار التوراة ليقبلها الأتباع وإذا سأل المسيحى عن الرقم ٣ قالوا هو الأب والابن والروح القدس ، وإذا سأل المسلم قالوا هو الله ومحمد والقرآن وإذا سأل الهندوسى قالوا هو البراهما وشيفا وفشنو يخاطبون كل واحد حسب عقيدته .

ولكن حينما يترقى الطالب ويبلغ أعلى الدرجات ويتم تجنيده وترويضه وغسل دماغه من الأفكار القديمة ترفع المصاحف والأناجيل ولا تبقى إلا التوراة ويلقن الطالب المواثيق الغليظة فيقال وعلى رقبته السيف : أقسم أن أقطع الروابط والصلات التى تشدنى للأقارب والأشياء والعصبيات والأرحام والأديان وكل ما حلفت له بالطاعة لارتبط أولا وأخيراً بإخوانى الماسون ادافع عنهم وأنقذ مسجونهم وأناصرهم حتى ولو أتوا منكراً .

وفى درجة أعلى يلقن قسماً أشد .

أقسم على التوراة التى آمنت بها وبأنها الكتاب الإلهى الذى لا قبله ولا بعده وأقسم بجلال النور الذى تجلى على جبل الطور أن أبذل آخر قطرة من دمى فى سبيل بناء دولة موسى الكبرى وأعمل لهدم جميع العقائد الأخرى التى فرضها الغاصبون من الأمم وأوقع هذا العهد بدمى أمام الرؤساء الجالوتيين الحاضرين .

وتحاول الماسونية دائماً استقطاب القادة والزعماء والأمراء والفنانين والكتاب وذوى النفوذ لتستخدمهم فيما بعد كأدوات فى مخططها .

وتبدأ الدرجات الماسونية من الواحد وهو الطالب المبتدئ إلى ١٨ وهو الفارس الحكيم إلى العارف إلى القدوس حتى الدرجة ٣٣ وهو « الرفيع » وليس بعدها إلا « الملك » وهى الدرجة التى بلغها هيلاسلاسى وقد زعموا له أنه من سلالة رحبعام بن سليمان . . ولا يعلو تلك الدرجة إلا المحفل الكونى المؤلف من ١٢ هم الأسباط الاثنا عشر أو أقطاب الجلال كما يسمون أنفسهم ومكانهم تل أبيب . . وهم الذين يوجهون عالم العميان والحيوانات الناطقة من غير اليهود .

وعلاقة الفكر المادى والفوضوية والعبثية والفرويدية بالتوجيه

اليهودى واضحة وقد حللناها فى كتب سابقة (انظر الماركسية والإسلام) .

ومن طرق التزييف الشائعة الآن إلباس الأفكار الماركسية طرحة إسلامية وإعلان البراءة من ماركس فى العلن ومزاولة أفكاره ومخططه فى الحقيقة .

ولقد كان القرآن على حق فيما وصم به اليهود وفيما صب عليهم من غضب ولعنات .

« فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » ١٦٦ – الأعراف

« قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ». ٦٠ – المائدة

وفيما وصفهم به من علم وتفوق وامتياز :

« وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ». ٣٢ – الدخان

وفيما وصفهم به من كبر :

« إن فى صُدُورِهِمْ إلاَّ كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ ». ٥٦ – غافر

وفيما وصفهم به من جبن :

« لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إلاَّ فى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ » .
١٤ – الحشر

وفيما وصفهم به من تحريف الكتب :

« وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ». ٧٥ – البقرة

« يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا

بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ » .
٧٩ – البقرة

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ». ٧٨ – آل عمران

ووصفهم بالمادية وحب المال والتمسك بالحياة :

« وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ (العجل الذهب) بِكُفْرِهِمْ » ٩٢ – البقرة

« وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ » ٩٦ – البقرة

وبممارسة السحر :

« وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ». ١٠٢ – البقرة

وبقتل الأنبياء :

« وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » .
١١٢ – آل عمران

وبنقض المواثيق وبالربا وأكل الحرام :

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ». ١٣ – المائدة

« سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ». ٤٢ – المائدة

وبجرأتهم على الله :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَتَان يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ». ٦٤ – المائدة

وبالفساد والإفساد وإشعال الحروب :

« وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » .
٦٤ – المائدة

وبإخفاء العلوم والكتب :

« قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ». ٩١ – الأنعام

ثم أوعدهم بسوء الخاتمة

« فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا (أى يحطموا) مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ». ٧ – الإسراء

صدق الله العظيم

وشهد على صدقه التاريخ فيما مضى كما سوف يشهد فيما تأتى به الأيام من سوء الخواتيم .

علم نفس قرآنى

المؤمنون أهل حلم وصبر وتواضع وتسامح وحياء .

« يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً ».

٦٣ – الفرقان

تعرفهم بطول الصمت وتواصل الفكر وخفض الصوت والبعد عن الهرج والصخب والتلاعن .

وتعرفهم بالتأنى والإتقان والإحسان فيما يعهد إليهم من أعمال ، وتعرفهم بالدماثة ولين الطبع والصدق والوفاء والاعتدال فى الأخذ من كل شيء .

وإذا كان لا بد من اختيار صفة واحدة جامعة لطابع المؤمن لقلت هى : السكينة ، فالسكينة هى الصفة المفردة التى تدل على أن الإنسان استطاع أن يسود مملكته الداخلية ويحكمها ويسوسها .

وهى الصفة المفردة التى تدل على انسجام عناصر النفس والتوافق بين متناقضاتها وانقيادها فى خضوع وسلاسة لصاحبها وهو أمر لا يوهب إلا المؤمن .

وأنت تقرأ هذه السكينة فى هدوء صفحة الوجه . . ليس هدوء السطح بل هدوء العمق . . هدوء الباطن . . وليس هدوء الخواء ولا سكون

البلادة ، وإنما هدوء التركيز والصفاء واجتماع الهمة ووضوح الرؤية . . وكأنما الذى تراه أمامك يضم البحر بين جنبيه .

والبحر ساكن ولكنه جياش يطرح اللآلئ والأصداف والمراجين من أعماقه لحظة بعد لحظة ، فهو غنى الغنى اللانهائى .

وهذه خاصية المؤمن . . ذلك الهدوء المشع الثرى . . لماذا . . ؟ ؟ ! !

لأن علاقة المؤمن بما حوله علاقة متميزة مختلفة . . علاقته بالأمس والغد . . وعلاقته بالموت . . وعلاقته بالناس . . وعلاقته بعمله ونظرته للأخلاق .

فالأخلاق بالمعنى الواقعى وبالمعنى الفلسفى هى أن تشبع رغباتك بما لا يتعارض مع حق الآخرين فى إشباع رغباتهم هم أيضاً ، فهى مفهوم مادى اجتماعى بالدرجة الأولى وهدفها حسن توزيع اللذات .

أما الأخلاق بالمعنى الدينى فهى بالعكس أن تقمع رغباتك وتخضع نفسك وتخالف هواك وتحكم شهواتك لتتحقق برتبتك ومنزلتك العظيمة كخليفة عن الله ووارث للكون المسخر من أجلك . . فأنت لا تستحق هذه الخلافة والسيادة على العالم إلا إذا استطعت أولا أن تسود نفسك وتحكم مملكتك الداخلية . . ومفهوم الأخلاق هنا فردى وهدفه بلوغ الفرد درجة كماله وإن كانت هناك ثمرة اجتماعية فإنها تأتى بالتبعية . . فالمجتمع الذى يتألف من مثل هؤلاء الأفراد لابد أن يسوده الوئام والسلام والمحبة . .

والأخلاق بهذا المعنى خروج من عبودية النفس إلى مرتبة عليا هى الجمعية مع الرب . . خروج من الجزء إلى الكل . . من النسبى إلى المطلق من الرغبة فى شىء مادى إلى الرغبة فى حضرة الإله حيث يجب أن

تتطلع كل العيون . . وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا تم تصحيح وتكميل بصر العين فأصبحت ترى كل شىء بحقيقة حجمه ونسبته لا تحجبها لذة دنيوية عن رؤية الكمالات الإلهية .

ولهذا تبدأ الأخلاق الدينية بمجاهدة الشهوات حتى تحكمها وتخضعها . . ولا تبدأ بالتسليم لها وبإشباعها كما فى الأخلاق الشائعة ، فهى ليست دعوة إلى حسن توزيع اللذات وإنما هى دعوة إلى الخروج من أسر الملذات ، وهكذا تفترق النظرتان تماماً ، وتؤدى كل منهما إلى إنسان مختلف .

فالإنسان المادى يستهدف النزوة واللذة الفورية والمقابل المادى العاجل (لأنه لا يعتقد فى وجود شىء وراء الحياة الدنيوية) ، وهو لهذا يجرى وراء « اللحظة » ويتشبث « بالآن » ، ولكن اللحظة متفلتة « والآن » هارب والفوت والحسرة تلاحقانه فى أعقاب كل خطوة يخطوها وهو متروك دائماً وفى حلقه غصة وفى قلبه ندم وكلما أشبع شهوته ازدادت جوعاً . . وهو يراهن كل يوم بلا ضمان وبلا رصيد فهو محكوم عليه بالموت لا يعرف متى وكيف وأين ، فهو يعيش فى قلق وتوتر مشتت القلب متوزع الهمة بين الرغبات لا يعرف للسكينة طعماً حتى يدهمه الموت رغم أنفه .

أما الإنسان المؤمن فهو تركيب نفسى مختلف وأخلاقية مختلفة ورؤية مختلفة . . فهو يرى أن اللذات الدنيوية زائلة ولا تساوى شيئاً وأنها مجرد امتحان إلى منازل ودرجات وراءها وأن الدنيا مجرد عبور إلى تلك المنازل والدرجات الباقية . . وأن الدنيا كالخيال وأن الله هو الضمان الوحيد فى رحلة الدنيا والآخرة . . وأنه لا حاكم ولا مقدر سواه . . لو اجتمع الناس على أن يضروه لما استطاعوا أن يضروه إلا بشىء كتبه الله عليه ،

وإن اجتمعوا على أن ينفعوه لما استطاعوا أن ينفعوه إلا بشىء كتبه الله عليه . .
ولهذا فهو لا يفرح لكسب ولا ييأس على خسران ، وإذا دهمه ما يكره . . قال فى نفسه :

« . . وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » ٢١٦ – البقرة

والله عنده حكيم عادل رحيم لا يقضى بالشر إلا بسبب ولحكمة ولفائدة أو استحقاق عادل .

وهو يقاتل ثابت القدم أمام الموت ، وهو يتغنى :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ » . ٧٨ – النساء

« قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ » . ٨ – الجمعة

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً » . ١٤٥–آل عمران

وهو لا يحسد أحداً ولا يغبط أحداً ، بل هو مشفق على الناس مما هم فيه من غفلة يقول له قلبه :

«لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلاَدِ . . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » . ١٩٦ – ١٩٧ – آل عمران

« أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فى الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ » . ٥٥ – ٥٦ – المؤمنون

« إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً » . ١٧٨ – آل عمران

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فى الأَرْضِ وَلَا فى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » . ٢٢–٢٣– الحديد

« قُل لَّنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا » . ٥١ – التوبة

وثمرة تلك الآيات عند المؤمن بها هى السكينة والهدوء النفسى وتطامن البال والثقة فى حكمة الله وعدله ورحمته وتصريفه .

ومثل هذا المؤمن كلما ترك شهوة من شهواته وجد عوضاً لها حلاوة فى قلبه مما يلقى من التحرر الداخلى من أغلال نفسه ومما يجد من النور فى بصيرته .

وهو يترك السعى إلى الحظوظ للسعى إلى الحقوق ويترك الدعاوى إلى الأوامر .

ويترك أهواء النفس إلى وجه الحق .

ويكف عن التلهف والحركة وراء الأغراض والمناصب والرياسات والمغانم ويسكن إلى جنب الله . . وهل بعد الله مغنم .

وهو مدرك بأن الجمعية مع الله لا يدانيها كسب فإلى جانب اللا نهاية تصبح جمعية الأعداد صفراً .

ومن صفات هذا المؤمن العامل لوجه الله أنه ناهض بالهمة على الدوام لا يفتر ولا يكسل ولا يتواكل بينما يفتر من يعمل للأجر ويفتر من يعمل للخوف (يخدع الأول نفسه بالاستكفاء ويخدع الثانى نفسه بالتمنى) أما القاصد وجه ربه فإنه لا يفتر لأنه لم يربط جهاده بأجر وهو لا يكسل متواكلا على مغفرة لأنه لا يتحرك بالخوف من عقاب وإنما هو عبد عاشق محب متطوع يعمل وهو يغنى لأن العمل عنده سعادة ولهذا لا تجده أبداً متبرماً ولا متسخطاً وإنما هو دائماً طلق الوجه مشرق البسمة متفائل حماد لربه فى جميع الحالات لا يسب الدهر ولا ينسب لربه نقصاً ولا قصوراً .

وهذه التركيبة النفسية النادرة هى ثمرة الإيمان بالقرآن وهى ثمرة التوحيد .

والتوحيد يجمع عناصر النفس ويوحد اتجاه المشاعر نحو مصدر واحد للتلقى فيؤدى بذلك إلى أثر تركيبى بنائى فى الشخصية بعكس تعدد الآلهة وتعدد مصادر الخوف والنفع والضرر فإنه يؤدى إلى توزع المشاعر وانقسام النفس وتشتت الانتباه إلى عديد من الجهات ، ويؤدى بذلك إلى تفكيك رباط الشخصية .

والقارئ للقرآن الكريم يخرج بعلم نفس قرآنى متميز بديع ومتفرد فى تربيته للمسلم .

وليس عجيباً أن القرآن أقام حضارة وصنع تاريخاً . . فإنه قبل ذلك قد أقام إنساناً وربى نفساً بديعة سوية متفردة فى تكاملها وأشرق عليها بسكينة لا مثيل لها .

ومثل تلك التربية الفذة تشهد للقرآن بأنه خرج من المشكاة الإلهية .

فلا مرب مثل الرب .

وقد ظهرت محاولات عديدة لفهم النفس فهماً جديداً مؤسساً على القرآن والسنة ، آخرها وأهمها كتاب الدكتور حسن الشرقاوى « نحو علم نفس إسلامى » وهو نظرة نقدية شاملة لعلم النفس الحديث ومحاولة للخروج بعلم نفس إسلامى جديد .

ويعرض الكتاب فى أمانة وجهتى نظر العلم والدين فى ذلك اللغز الذى اسمه النفس ويدعو القارئ ليفكر معه خطوة بخطوة ويأخذ بيده برفق إلى الحقيقة .

إن علماء النفس لا ينظرون إلى النفس إلا من خلال العيوب والأمراض والآفات والعلل . . ولا يفتشون إلا فى الانحرافات والتشوهات والعقد ولا يقدمون لنا شيئاً إيجابياً عن النفس السوية الصحيحة . . والمنبع

الوحيد للسلوك عندهم هو إشباع شهوة . . والمرجع الرئيسى الذى يفسر به فرويد جميع التصرفات هو عقدة أوديب وعقدة الكترا . . وهى شهوة الطفل فى أن يجامع أمه وشهوة البنت فى أن تجامع أباها . . وهى هلوسة سمعها من مرضاه الهستيريين فجعل منها تهمة عامة ألصقها بالكل ، ومن هنا كان الإحساس بالذنب عند فرويد مرضاً . . والتوبة نكوصاً . . والندم تعقيداً . . والصبر على المكاره بروداً . . وقمع الشهوات كبتاً له عواقبه الوخيمة .

بينما نرى الدين يقف على النقيض من هذه النظرة . . فيعلمنا أن قمع الشهوات هو شاهد على سلامة النفس واقتدارها وأن الإحساس بالذنب علامة صحة وأن التوبة موقف علم والندم موقف علم تدل جميعها على فطرة سوية أدركت الله وعرفت أنه دائماً مع الحق والعدل والخير .

ولا يرى الدين أن النفس محض فجور بل يصفها بأنها قابلة للفجور وللتقوى وأن الله ألهمها فجورها وتقواها معاً فهى تستطيع أن ترتقى فى معراج نورانى نحو الله أو أن تهابط سفلياً فى درك الشهوات . . وهى فى ذلك مخيرة . . وكل إنسان يتصرف على شاكلته .

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » . ٨٤ – الاسراء

* ويتوسع فرويد توسعاً معيباً فى حكاية الجنس والطاقة الجنسية Libido واللذة الجنسية ، ويتصور أن الرضيع يمتص حلمة ثدى أمه بلذة جنسية (وهو كلام غير مفهوم ، فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تخلف جميع أجهزته ، وهو بالتالى غير قادر على تذوق هذه اللذة) .

كما يتصور أن الصبى يحبس البراز فى شرجه بلذة جنسية (وهو يستبدل هذه اللذة حينما يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد) .

كما يتصور كل ما هو مستدير فى الحلم رمزاً لعضو المرأة التناسلى (مثل الكهف والدائرة والعلبة والخاتم والحلق والزجاجة) وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزاً لقضيب الرجل (مثل العصا والثعبان والقلم والمئذنة والبرج والسيف والمظلة) وكل حركة فى الحلم هى رمز للعملية الجنسية (كالجرى والتسلق والسباحة وركوب الدراجة) .

ثم هو يدمج كل أنواع الحب حتى حب الوالدين وحب النفس فى هذه الحلقة الجنسية المفرغة ، فحب الأم (عقدة أوديب) وحب الأب (عقدة الكترا) وحب النفس (نرجسية) . . وكأنما هى لعنة تمازج كل فعل . . فلا براءة فى أى شىء . . ولا طهارة فى أى خاطر أو أى فكرة .

وهى مبالغات أقل ما يقال فيها إن صاحبها مريض بهوس جنسى .

* ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسى الحسى الشهوانى ، فالأحلام كلها إشباع لرغبات مكبوتة وهى تحرس النوم بهذا الإشباع المتجدد الذى يريح النفس من أشواقها الملحة فتسترسل فى نومها .

وفرويد وأصحابه لا يرون بذلك إلا نوعاً واحداً من الأحلام وجانباً واحداً من النفس هو الجانب المادى الحيوانى .

أما القرآن ، فيعلمنا أن هناك نوعين من الأحلام . . نوعاً يطلق عليه « أضغاث الأحلام » وهو حديث النفس الأمارة بشهواتها ورغباتها أو حديث الشياطين إلى تلك النفس أثناء النوم . . وهو ما اشتغل فرويد بتفسيره .

ثم نوع آخر من الأحلام هو الرؤى التى تأتى إلى النفس . . من

الملإ الأعلى . . وتكون حديثاً من الله إلى نفس النائم أو حديثاً من الملائكة المكلفين إلى تلك النفس . . ومثال ذلك الرؤى الصادقة التى تتحقق بحذافيرها ونصها .

ولا مكان لهذه الرؤيا عند فرويد . . ونظريته تعجز تماماً عن تفسيرها ، مع أنها خبرة عادية عاشها كل منا وجرب طرفاً منها . .

كما أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هى مسألة تهدم الفكر المادى من أساسه سواء الفرويدى منه أو الماركسى لأنها إثبات صريح يؤكد سبق الفكر على المادة ، ويميز القرآن بين هذين النوعين من الأحلام ويفصل بينهما .

يقول فرعون :

« يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ » . ٤٣ – يوسف

« قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ » .

٤٤ – يوسف

فهناك إذن أضغاث ورؤى .

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسة الشهوانية ، ولهذا يرى أن السعادة والراحة فى إشباع تلك الشهوات بينما يرى الدين أن السعادة فى مخالفتها وقمعها والقبض على زمامها والتسلق عليها عوداً إلى الوطن الأول . . إلى الله الذى منه جاءت كل النفوس وإليه تعود .

والحزن الحق فى الإسلام هو نتيجة فراق هذا الوطن والانغماس فى ظلمة الدنيا . .

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان منها .

ويـنظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره مرضاً ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره موضوعاً مؤلماً أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسية فى اللاشعور . . والطبيب النفسى يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو التنويم المغناطيسى أو بملاحظة المريض فى أثناء تداعى خواطره .

ولكن الدين ينظر إلى الموضوع فى إطار أوسع وأشمل ، هو إطار العلاقة بالله ، فمن كان قريباً من ربه ذاكراً له على الدوام كانت قدراته دائماً مكتملة وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئاً ولا يغيب عن باله شىء لأنه فى دائرة النور . . أما البعد عن الله فيدخل صاحبه فى دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة .

« نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » . ١٩ – الحشر

وهؤلاء هم الذين يتخبطون فى متاهات النسيان والحيرة والضياع .

والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين هو افتقاد علم النفس للشمول والنظرة الواسعة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية والدنيا المادية واللذة المادية .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى الوسواس والخاطر فيرى أنه نفث من اللاشعور وأنه حديث النفس إلى النفس ولا يتصور أن تلك النفس تحيا فى محيط آخر خفى وأنها يمكن أن تكون محلا لمخاطبة الملائكة ووسوسة الشياطين أو مكالمة الرب جل جلاله .

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسى فلا يكاد يخرجه من إطار الحرمان من اللذات المادية . . ولا يتصور أن العذاب الدنيوى يمكن أن يكون ابتلاء وامتحاناً من الخالق الذى خلق . . كما يفعل الحداد

بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقى به فى الماء البارد ليزداد صلابة . . أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب وما فيها من نحاس وما فيها من خبث وتراب .

ويظل علم النفس سجيناً لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية لكل شىء بشكل ينتهى به إلى الخطأ فى جميع أحكامه . . فهو مثل الأعمى الذى اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل .

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل فى نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه فى تحليل مدى صدق وإخلاص هذا الحافز ودون أن يتخطى هدف الفعل ويسأل ماذا يريد به صاحبه . . هل يريد تحصيل المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه عند الناس . . أو هو يعمل خالصاً مخلصاً لوجه الله . .

والفرق كبير وهائل بين العملين . وهو أيضاً كبير وهائل بين النفسين .

وفصل الأخلاق عن أهدافها هو فى النهاية فصل لها عن منبعها الأصيل الذى هو الدين . . فالدين وحده هو مصدر الأخلاق . . الرحمة والعلم والرأفة والمودة والكرم هى من الله . . فهو وحده الرحمن الرحيم الكريم الودود الرءوف الحليم ، كما تقول لنا أسماؤه الحسنى ، وهو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها .

ولهذا يختلف علم النفس والدين فى علاج الأمراض النفسية .

فلا يرى علم النفس إمكاناً لتبديل النفس أو تغييرها جوهرياً لأن النفس تأخذ شكلها النهائى فى السنوات الخمس الأولى من الطفولة . . ولا يبقى للطبيب النفسى دور سوى إخراج المكبوت إلى الوعى . . أو فتح

نوافذ للتنفيس والتعبير وتخفيف الغليان الداخلى . . وبهدف الوصول إلى ذلك يلجأ الطبيب النفسى إلى العلاج بالتنويم المغناطيسى أو العلاج بالتحليل أو العلاج بالإيحاء أو بالتنفيس والتعبير والفن واللعب أو العلاج بالاستغراق فى عمل آلى .

وكل هذه الصور من العلاج أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئاً ، فكلها تقبل وجود الدمل النفسى على حاله ثم تقول للمريض . . اصرخ أو غن أو ارقص لتنفس عن آلامك . . أو تضع يده على الدمل وتقول له . . هنا الدمل . . وهذا كل جهدهم .

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس وتغييرها جوهرياً ويقول بإمكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلـهية ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمالات الخلقية وذلك بالرياضة والمجاهدة . . ويكون ذلك على مراحل . . أولاها تخلية النفس من عاداتها المذمومة وذلك بالاعتراف بالذنوب والعيوب وإخراج هذه العيوب إلى النور . . كما قال موسى لربه بعد قتل المصرى خطأ :

« رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ». ١٦ – القصص

وكما نادى يونس فى الظلمات :

« لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ». ٨٧ – الأنبياء

والمرحلة الثانية هى التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخاطر .

والمرحلة الثالثة هى مجاهدة الميول النفسية المريضة بأضدادها ، وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق وإكراه النفس الشهوانية

على التعفف ودفع النفس الأنانية إلى البذل والتضحية وحث النفس المختالة المزهوة على التواضع والانكسار واستنهاض النفس الكسولة إلى العمل . . وبمعالجة الضد بالضد تصل النفس إلى الوسط العدل . . وهو صراط الحكمة . . وهو حظ الكاملين من البشر .

ولا تنجح تلك الرياضة دون طلب المدد والعون من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء فى محبة الله ركوعاً وسجوداً فى توحيد كامل (وتوحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملة والاسترسال معه . . لا تريد لنفسك إلا ما يريد لك ربك ولا تطلب لنفسك إلا ما يطلبه هو لك) وهنا تحدث المعجزة . . فيتبدل القلق سكينة والفزع طمأنينة والخسة الشهوانية عفة وطهارة . . والنواقص النفسية كمالات .

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى « الذكر » . . ذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعمل . . واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطول الوقت فى كل قول وفعل .

وفى الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد والرب ويربط النفس بمنبعها ويرد الصنعة إلى صانعها . . حيث هو الأعلم بعيوبها والأقدر على علاجها .

« ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ». ٦٠ – غافر

« فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ». ١٥٢ – البقرة

فيعود النور ليغمر ظلام النفس ويحل العمار مكان الخراب وتتجلى الكمالات الصفاتية الإلـهية على قلب العبد الخاشع .

وبينما يرى فرويد الطيبة تخاذلا وسلبية وينصح مريضه قائلا له : كل وإلا فأنت مأكول .

نرى نحن الطيبة قوة وإيجابية . . ونأمر بالصفح :

« فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ». ٨٥ – الحجر

« فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ». ١٠٩ – البقرة

« وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ». ٢٣٧ – البقــرة

وبينما يختار فرويد من الأعمال ما يساعد على تفريغ وتنفيس الغليان النفسى . . نشترط نحن العمل الصالح .

وبينما يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله لا نقول نحن بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أى حكم ونتخلص من أى حكومة ، وبينما يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت وبالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسية ، نقول نحن إن الإنسان فطر حراً مختاراً بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية .

وسبب كل هذه المادية الفرويدية ومادية علم النفس الحديث بوجه عام هو تصوره للإنسان تصوراً آلياً حيوانياً خسياً فسيولوجياً .

وهو عين ما فعله كارل ماركس حينما تصور أن التاريخ عربة تحركها المصالح المادية والقوى المادية وحدها . . وأن حركة التاريخ هى دائماً ثمرة الصراع بين طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه فى الكلام عن الصراع الطبقى .

وهذا التصور المحدود والأفق الضيق المسدود هو الذى أدى بالاثنين إلى اعتساف الفروض والتخريجات . . وهو الذى أدى بالاثنين إلى تلفيق ما قالاه عن النفس وعن التاريخ . . وهو الذى انتهى بالاثنين إلى اعتساف الأدلة وتزييف البراهين .

وقد ظهر فشل الطب النفسى الحديث من التتبع الإحصائى للحالات التى تم علاجها نفسياً . . فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى المصابين ثابت سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا بطريقة أدلر أو لم يعالجوا على الإطلاق . . فمن يشفى منهم حاله كحال مريض الإنفلونزا مصيره إلى الشفاء سواء بالعلاج أو بدون العلاج .

كما اتضح أن معظم الأطباء النفسانيين مرضى أكثر من مرضاهم وفى حاجة إلى تحليل .

وأخيراً رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمخدرات والمنومات . . وهو اعتراف بالعجز والفشل . . وهروب من المشكلة كلها بالنوم عنها .

وكيف لا تنتهى الفرويدية إلى الفشل وهى القائلة باستحالة تغيير النفس وتبديلها . . وبأن النفس تتشكل فى سنوات الطفولة الأولى . ثم تصبح قدراً لصاحبها لا خلاص منها .

وماذا أبقت لنا هذه النظرة سوى العلاج بالمسكنات والمراهم الخارجية .

لقد انتهى علم النفس الحديث إلى الفشل لأن منطلقاته معظمها خاطئ ، وكان أكبر أخطاء هذا العلم أنه ليس علماً كما أن الماركسية لم تكن قط علماً . . وإنما هى مجموعة أفكار ظنية .

كما أن علم النفس الحديث هو الآخر مجموعة أفكار ظنية وهذا بعض ما أورثتنا الحضارة المادية من ظنون وأوهام .

ومن تلك الظنون والأوهام ذلك الذى يسمونه علم النفس التجريبى الذى يجرى تجاربه على الإنسان كما يجريها على الفئران والأرانب والكلاب ويتصور النفس الإنسانية مجموعة ردود أفعال فسيولوجية مادية ولا أكثر .

وهو تصور خاطئ فالنفس الإنسانية «ذات» قبل كل شيء ولا يمكن إحالتها إلى موضوع مجرد. وهي كالحياة إذا أعملت فيها مبضع التشريح ماتت في يدك..

والنفس دائماً تستخفي على النظرة التحليلية وتتنكر بما تطرح في الظاهر من ردود أفعال سلوكية وهي لا تعطي سرها أبداً حتى صاحبها إذا بدأ يتدبرها كموضوع لأنها ليست موضوعاً بل هي في جوهرها ذات بكر إذا فضضت بكارتها وهتكت استسرارها وحاولت أن تقتحمها بالنظرة الموضوعية استعصت عليك وتفلتت منك بمجموعة من البدائل السلوكية الخادعة وتحولت إلى شيء آخر.. ولم تعد «هي»..

ويظل دائماً الفارق بين ماترى منها في الظاهر ومن حقيقتها كالفارق الهائل بين الجسد الظاهر والروح التي تسكنه.. وأنت لن تصل أبداً إلى كنه الروح بتشريح الجسد.. وإنما أنت على أحسن الفروض سوف تفهم الجسد أكثر فأكثر ولكنك تظل دائماً بعيداً كل البعد عن إدراك سر الروح ولغزها.

وخطأ أصحابنا الماديين أنهم يتعاملون والنفس الإنسانية على أنها مادة هي الأخرى وجسد يمكن اقتحامه بالتشريح والتجربة.. وهم يفعلون هذا عن إيمان بأنه لا روح هناك ولا ذات ولا نفس.. وإنما مجموعة مركبات كيمياوية اسمها الإنسان وتلك هي خطيئة الحضارة المادية.

وواجبنا أن نعرض هذه الحضارة على الفرز..

ولقد عشنا مئات السنين عالة على الغرب ولكننا اليوم نستطيع أن نعطي الغرب ونعطي الشرق وما أكثر ما يستطيع الإسلام أن يعطي هذا العصر الخرب.

الشريعة.. متى.. وكيف؟



الشريعة لم تنزل لمجلس الوزراء ولكنها نزلت إلى كل مسلم ليطبقها فى نفسه أولا وفى سلوكه وفى بيته وفى جيرانه وفى عشيرته، فكل مسلم راع وكل مسلم له دولته الخاصة وله رعيته التى عليه أن يطبق فيها أمر الله أولا قبل أن يتوجه بالأمر إلى غيره. .

والآيات التى جاءت فى القرآن فى سورة المائدة :

« وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُون » (٤٤ - المائدة)

« وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ » (٤٥ - المائدة)

« وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون » (٤٧ - المائدة)

هـذه الآيات نـزلت لكـل مسلم وإلى كـل راع فى رعيته وهى ليست مسئولية ينفرد بها الحاكم ولا أمانة اختص بها مجلس الوزراء.

بل إن القرآن جاء صريحا بأن الله لن يغير ما بالناس حتى يبدءوا هم بتغيير ما فى نفوسهم.

« إِنَّ الله لَا يُغَيِّرُ مَابِقَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (١١ - الرعد)

فإقامة شرع الله فى دولة النفس هى البداية وهى الشرط الأول الذى بدونه لا تغيير ولا تبديل.

والله يخاطب عيسى فى حديث قدسى قائلا :

(يا عيسى عظ نفسك فإذا اتعظت فعظ الآخرين وإلا فاستح منى .)

فالشريعة لم تنزل لنسير بها فى مظاهرة إلى سراى عابدين دون أن يفكر هذا الذى يهتف ويتظاهر ويحمل اللافتات ويقذف بالطوب ويحرق الأتوبيسات (وبعضهم مأجور ومحترف ومتآمر وعميل لدول كبرى ودول صغرى وأحزاب تستعمل يده وتستعمل حنجرته وتستعمل الدين لتثير الانقلابات والفتن) هذا الذى يرفع عصا الشريعة على الحكومة دون أن يفكر فى أن يرفعها على نفسه أولا لن يصل إلى خير . . ولن يحقق نفعا . . وإذا استطاع أن يحمل الحاكم على تطبيق الشريعة عنوة دون تجاوب من القاعدة ودون همة خاصة من كل فرد على تطبيق هذه الشريعة فى نفسه فلن يصل إلى شيء ولن يكون التغيير إلا مجرد تغيير ظاهري ووضع لمزيد من الملصقات مثلما فعل النميرى فى السودان فقطع يد سارق عشرة الجنيهات وأعفى سارق المليون .

والخومينى يقول إنه يطبق الشريعة فى إيران والقذافى يقول إنه يطبق الشريعة فى ليبيا وضياء الحق يقول إنه يطبق الشريعة فى باكستان فأى تطبيق من هذه التطبيقات يريده المتظاهرون .

وفى السعودية تقام الحدود بالفعل فتقطع يد اللصوص ويرجم الزناة ومع ذلك فقد طلع المهدى وعصابته على الكعبة بالمدافع الرشاشة بدعوى تطبيق الشريعة .

إنها إذن ليست حكاية الشريعة .

وهؤلاء الناس لا يريدون شريعة بل يريدون أنفسهم حكاما . . إنها

شهوة حكم ومطلب سلطة . . وما اللافتات المرفوعة إلا لافتات تمويه وما الهتافات إلا هتافات تعمية . . والشريعة بريئة من أهواء هذه الطائفة التى خططت لتعيد فتنة الخوارج فأرادت أن تخرج علينا رافعة المصاحف على أسنة الرماح هاتفة على الحاكم أن يطبق حكم الله . .

وكما قال الزميل خالد محمد خالد لا نجد ردا نرد به عليها أبلغ من رد على بن أبى طالب . . أنها قولة حق أريد بها باطل .

وقد بدأت الفتنة الكبرى من ذلك التاريخ القديم .

واليوم نرى الزمن قد استدار دورته ونرى الإسلام يدفع به إلى فتنة أكبر وأشمل ، فنرى المسلم يقتل المسلم فى كل مكان وحملة لواء لا إله إلا الله يذبحون بعضهم بعضا فى لبنان والعراق وإيران وسوريا وليبيا وكل بلد عربى . وهم هنا يريدون أن يقتل بعضهم بعضا تحت راية الشريعة وباسمها .

وقديما لم يقطع عمر بن الخطاب يدا فى مجاعة . . ولم يقطع النبى عليه الصلاة والسلام يدا فى حرب . .

ونحن اليوم فى حرب أو نكاد . . وفى فتنة هوجاء أسوأ من كل الحروب . . وما أسهل استئجار أربعة شهود زور لقطع يد برىء . .

وقد أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام أن ندرأ الحدود بالشبهات . . وهل ترون عصر شبهات أكثر من عصرنا الذى يموج بالفتن كقطع الليل المظلم .

تمهلوا يا قوم ولا تعجلوا فتدفع بكم العجلة إلى الظلم . . فالشريعة ليست قضية إنفعال ولا مسألة هوى . . بل هى مطلب حقيقى وعزيز

ويجب أن تصدق فيه النوايا ويبدأ فيه الطالبون بأنفسهم وتتجاوب فيه القاعدة مع القمة ويأتى فيه الإصلاح على مكث وعلى تروى وعلى تدرج، فنحن فى الظرف الذى يسميه الفقهاء.. شيوع البلوى.. تماما كما كان انتشار الخمر فى الجاهلية بلوى شائعة.. ولذلك نزلت آيات تحريمها على مكث وتدرج واستغرقت مراحل تحريمها أكثر من اثنتى عشرة سنة.. وكان هذا درسا من الله يعلمنا فيه مرونة التشريع الإلهى ومناسبته لكل الظروف.

ثم هناك ولا شك قضايا فقهية وقانونية فى حاجة إلى إعادة تقنين وإعادة نظر مثل.. قضايا الرشوة والاختلاس والعمولات والسرقة من مال عام.. ومثل تلك السرقات لا يدخلها المشرع الإسلامى تحت بند قطع اليد.. لأنه يعتبر أن المال العام فيه شبهة ظلم فلا يجيز قطع اليد فى سرقته.. وبذلك نراه يقطع اليد فى عشرة جنيهات ويعفى مختلس المليون الذى سرقها من قطاع عام.. وهذه مسألة تحتاج إلى إعادة نظر لأن أخطر سرقات اليوم هى سرقات القطاع العام وإعفاء مثل تلك السرقات من الحد سوف يشجع عليها.. وقطع يد صغار اللصوص وإعفاء كبارهم سوف يكون فتنة.

إن الدراسة مطلوبة وحسن الفهم عن الله شرط لتطبيق شريعته.

ثم إن الشريعة ليست مجرد حدود.. فالعدل شريعة والرحمة شريعة والعلم شريعة والعمل شريعة والله أمر بالعلم فى أكثر من ألف موضع وأمر بقطع يد السارق فى موضع واحد.. وأول الأوامر مطلقا.. كان:

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ».

ورغم هذا الأمر الصريح بالقراءة وهو الأمر الذى له أولوية مطلقة فى الإسلام فنحن أمة لا تقرأ ولا تعقل بل نفكر فى المظاهرات والهتافات والمسيرات لنطبق الشريعة.. ولكن ما هى الشريعة؟.. إنها هذا كله.. إنها العلم والعمل والعدل والرحمة.. وهى ليست مجرد حدود.. وما الحدود إلا سياج الأمن والحماية الذى تضربه الشريعة حول خيمة المسلمين.. ولكن الشريعة ككل أكبر من موضوع الحدود فهى قانون الرحمة العام وقانون الحب ودستور النماء والتطور للمجتمع الإسلامى.

وما أقول هذا الكلام إلا حبا فى الشريعة وتمسكا بها وخوفا عليها من سوء النوايا وسوء التفسير، وسوء الفهم وسوء التطبيق، وحرصا عليها من متاجرة المتجرين وأهواء المتآمرين.

والإسلام الحق لا مدخل فيه للاكراه والعنف والمظاهرات والمزايدات السياسية بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ولا مكان فيه للهوى والغرض والمتاجرة بالعقول.

ولا يصح فى الإسلام إلا الصحيح.

ولا يخلص إلا ما كان خالصا لوجهه تعالى.

فتمهلوا يا قوم.. ولا تسارعوا باتهام بعضكم بعضا.. فكلنا يسير على الشوك وكلنا يمشى على الألغام.. وكلنا مستدرجون من حيث لا ندرى بمكر الماكرين من الداخل وتآمر المتآمرين من الخارج.. ولا يسلم موطئ قدم من حفرة ولا تسلم عتبة من فخ منصوب.. والأعداء حولنا كبارهم وصغارهم لا يريدون لنا سلاما وهم يخططون لخرابنا.. ويا حبذا لو جاء خرابنا بأيدينا لنوفر عليهم مؤنة القتال.

فلنتمهل.. ولنفكر مرتين.

وليرفع كل منا عصا الشريعة على نفسه أولا وليطبقها فى سلوكه وفى بيته وليغير من نفسه..

فإذا غيرنا من أنفسنا فسوف يغير الله ما بنا.

فذلك وعد الله.. ولن يخلف الله وعده.

ولندع تقنين الشريعة على مستوى الحكم يأخذ مجراه فى هدوء بين رجال قانون متخصصين ورجال فقه متعمقين وأهل نظر واجتهاد متنورين يأخذون لنا بالأحسن من كل شىء.

«وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيكُم مِن رَّبِّكُمْ» (٥٥–الزمر)

الله يوصينا بهذا مع أن كل ما أنزله إلينا حسن.

والله يلفتنا بذلك إلى تفاوت مراتب الأمر.. فالله أمرنا بالعدل ولكنه أمرنا أيضا بالرحمة.. والرحمة فوق العدل.. ومن يأخذ بالرحمة يأخذ بالأحسن.

ألم يقل نبينا محمد عليه الصلاة والسلام للمسلمين.

تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى منها فقد وجب.

أى حاولوا تصفية الخلافات التى تقتضى الحدود فيما بينكم فيعفو الواحد عن الآخر أو يأخذ دية ولا تبلغونى فإن ما بلغنى منها فقد وجب تنفيذه.. يقول هذا كراهة لتنفيذ الحدود وإيثارا للعفو والتراحم بين المتخاصمين.

وهذا هو الإسلام.. دين السماحة والتراحم والمحبة والمغفرة..

الدين الذى لا يلجأ إلى العنف إلا حينما يستنفد كل فرص الإصلاح..

الدين الذى جاء رحمة للعالمين.

فلنحاول أن نكون مسلمين حقا.. رحماء حقا.. إنسانيين حقا..

فتلك هى بطاقات المؤمن الربانى الوارث الذى يسير على القدم المحمدية.

أما العنف والإرهاب والانقلاب والإضراب والتظاهر وخطف الطائرات وتلغيم السيارات، فتلك بضاعة الساسة الماكرين وأهل الأغراض والأهواء، والمهيجين والمجرمين والمتاجرين بالعقول.. ولسنا منهم.. بل ضدهم فهم لن يفتحوا لنا بابا إلى نجاة، بل سوف يفتحون لنا جهنم على مصاريعها.

التوسل

يدور الجدل من قديم حول زيارة أضرحة الأولياء والتوسل إليهم . . كما يدور الجدل حول موضوع الوساطة والشفاعة فى الإسلام . . وهناك وجهات نظر متعددة . . والموضوع دقيق . . ولى فيه رأى .

فالقرآن يرفع الوساطة بين العبد وربه ويجعل العلاقة بين الإنسان وبين الله علاقة مباشرة . . العبد يدعو والرب يستجيب .

« وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ». ٦٠ – غافر

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ». ١٨٦ – البقرة

بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد (أى من الدم فى أجسادنا) ولا حجاب بيننا وبينه إلا جهلنا .

ولا كهنوت فى الإسلام ولم يظهر عندنا بابوات يمنحون صكوك الغفران لأن الله فتح بابه على مصراعيه لكل من يفكر فى الدخول عليه .

بمجرد أن يتوجه العبد إلى القبلة مكبراً . . الله أكبر . . فى أى مكان من الأرض رافعاً يديه للصلاة . . يصبح بين يدى ربه دونما حاجة إلى وسيط لإدخاله إلى الحضرة الربانية .

ولهذا اقتصر دور رجل الدين فى الإسلام على الاجتهاد فى العلم

ونشر الدعوة . . ولم يشتغل أحد بالوساطة ولم يزعم أحد لنفسه شفاعة .

ومع ذلك قال كثير من الصوفية بالتوسل والبركة واعتقدوا فى التقرب إلى الله بشفاعة الرسول وآل البيت والأولياء .

واعتمدوا فى هذا الإيمان على أن الشفاعة وردت فى القرآن مشروطة بالإذن .

« مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ » . ٢٥٥ – البقرة

« مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ ». ٣ – يونس

« وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ». ٢٣ – سبأ

ومعنى ذلك أن القرآن ينفى الشفاعة إلا إذا كانت بإذن وقبول من الله .

وذلك معناه أيضاً أن هناك شفاعة مقبولة وشفاعة غير مقبولة . . وأن هناك شفيعاً يؤذن له . . وشفيعاً لا يؤذن له .

واستدلوا بقول الله للرسول عليه الصلاة والسلام :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ». ١٠٣ – التوبة

فجعل الله من صلاة الرسول واسطة رحمة وسكن .

كما استدلوا بطلب قوم فرعون وساطة موسى حينما نزل بهم القحط .

« قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إسْرَائِيلَ » ١٣٤ – الأعراف

وقد استجاب الله لتلك الوساطة كما تقول الآيات ولكن فرعون عاد فنكث عهده .

كما استدلوا بقصة الغلامين اللذين كان لهما كنز فحفظه الله من الضياع ببركة صلاح الأب .

« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ » . ٨٢ – الكهف

كما استدلوا بذكر القرآن استغفار الله مقروناً باستغفار الرسول كشرط لبلوغ التوبة فى قوله عن الظالمين :

« وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً » . ٦٤ – النساء

وكلها آيات صريحة عن شفاعة الرسول وفائدة التوسل بالصالحين .

ولكن المنكرين استدلوا هم أيضاً بآيات صريحة وقاطعة مثلما قال الله تبارك وتعالى للرسول عن الكافرين :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » ٨٠ – التوبة

فهى آية صريحة تنكر جدوى الوساطة ولو كانت سبعين استغفاراً من الرسول الكريم .

ومثلها إنكار القرآن استغفار إبراهيم لأبيه :

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » . ١١٤ – التوبة

ومثلها إنكار الملائكة على إبراهيم توسطه لرفع العذاب عن قوم لوط .

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » . ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - هود

فإنكار الملائكة على إبراهيم الوساطة صريح .

واصرح من ذلك ما جاء من زجر الله لنوح عن الكلام فى شأن الظالمين .

« وَلاَ تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ » . ٢٧ - المؤمنون

والآيات المؤيدة لكلا الفريقين (المؤمنين بالتوسل والمنكرين له) قاطعة .

فكيف نفهم الأمر . . وهل هناك تناقض . . ؟ !

والواقع أنه لا يوجد تناقض . . والآيات فى الحقيقة تتكلم عن مستويات مختلفة .

والمبدأ الرئيسى والجوهرى أن حكم الله لا يرد .

« وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » . ٤١ - الرعد

فلا يستطيع نبى ولا ولى أن يرد قضاء الله أو يعدل حكمه ولا يجوز له أن يسعى إلى هذا التعديل ولا ينبغى له أن يفعل ذلك .

والشفاعة الواردة فى القرآن لا ترفع حكماً ولا تبدل قضاء . . وإنما هى مظهر تشريفى من مظاهر هذا القضاء ذاته .

فالله فى سنته الأزلية إذا أراد لعبد خيراً . . يناوله هذا الخير بيد عبد مثله .

فالله يشفى على يد جراح . . ويعلم عباده على يد أساتذة الجامعات وينذرهم بلسان الأنبياء المرسلين . . وهو يغرق بالسيل ويسقى بالمطر ويقتل بالصاعقة . . وهو يرزق التاجر على يد تاجر مثله .

وكان يمكن لله أن يناولنا المال بيده مباشرة ويشفينا بكلمة دون حاجة إلى جراحة أو دواء ولكنه أقام الأسباب ليناولنا الخير عن طريق الأيدى المباركة التى يحبها ويناولنا الشر عن طريق الأيدى الآثمة التى يبغضها .

وفى الآخرة سيناولنا الله البراءة والنجاة عن يد رسولنا الكريم وذلك هو مقام الشفاعة العظمى ، وذلك هو معناه .

والرسول بهذا المعنى مناول خير ومناول فتح ومناول رحمة . . وهو لا يبدل حكماً ولا يغير قضاء . . تعالى ربنا عن أن يشرك فى حكمه أحداً .

« لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . ١٦ - غافر

لا اله إلا هو . .

فالله وحده هو صاحب الكلمة والأمر والحكم .

ولهذا قطع القرآن بأن استغفار الرسول عليه الصلاة والسلام للكفار لن ينجيهم . . وقال إن استغفار إبراهيم لأبيه كان عن أمل فى إيمانه حتى إذا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

كما جاء كلام الملائكة فى توسط إبراهيم لقوم لوط عنيفاً :

« يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » . ٧٦ - هود

ومعنى ذلك أن الوساطة والتوسل والشفاعة بالمعانى التى نفهمها فى الدنيا (وهى التوسط عن غير حق وعن غير جدارة) لا مكان لها فى الدين وهى غير واردة إطلاقاً . . فكلمة النبى لا تنجى كافراً ولا تنقذ ظالما عاصيا مات على ظلمه دون توبة .

وإذا كانت الوظائف والمنازل والمراتب فى الدنيا يفوز بها الوصوليون

بالتملق والوساطة والتوسل فهذا أمر ممتنع تماماً فى الآخرة . ومثل هذا التوسط محال .

والملائكة لا يتكلمون بين يدى ربهم إلا من جاء بالحق وقال صواباً

« لَايَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً » ٣٨ – النبأ

فلا إذن لأحد بكلمة إلا إذا كانت حقاً .

وكلمات الرسل لن تغير ولن تبدل من قضاء الله شيئاً فهو الشاهد على كل الشهود . . ولن يزداد ربنا بكلمات الرسل والشهود والملائكة والكاتبين علماً على علمه . . فهو سبحانه أحاط بكل شىء علماً .

إنما يأذن الله لرسوله بالشفاعة لمن كتب لهم النجاة مسبقاً فى كتابه (وذلك من باب التشريف) ليكون الرسول هو مناول البراءة والرحمة لأتباعه يصلهم الخير العميم على يده (وذلك هو معنى الشفاعة) .

ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام :

« إنما أنا قاسم والله معط ».

فالعطاء من الله والخير من الله والحكم من الله وإنما يشرف الله رسوله بأن يكون هذا الخير بشفاعته وعن يده .

وصلوات الرسول سكن لمن يصلى لهم ولكن لو أراد الله ألا ينالوا سكناً لما أذن لرسوله بهذه الصلوات ولما صلاها أصلا .

والمعنى دقيق . . فلا أحد يسبق الله . . ولا حكم يتخطاه أبداً والمراد بالتوسل فى الآية :

« وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ » ٣٥ – المائدة

إن وسيلة كل إنسان عمله .

ولكن العمل الأمثل هو اتباع الرسول واتخاذه قدوة فى جميع الأعمال .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . ٢١ – الأحزاب

فالرسول بهذا المعنى « وسيلة » غير مباشرة لأنه قرآن يمشى على الأرض ونموذج كامل للخلق الشريف الأمثل . . ومن مشى على قدمه تناول البراءة على يده ودخل الجنة بشفاعته (إذ سيكون مأذونا فى هذه الشفاعة بحكم سنة الله فى كل المتبعين) .

وشهادة الأب الصالح للابن الصالح . . وشهادة الملائكة للأبرار الذين كانوا لهم قرناء على الأرض .

وشهادة الأرواح المرشدة لأتباعها .

كل هذه الشهادات لا تزيد الله علماً على علمه (فالله لا يحكم بالمداولة ولا يحتاج إلى محلفين ولا يحتاج إلى مشورة قاضى يمين وقاضى يسار) وهو قد حكم من الأزل وانتهى الأمر . . إنما هذه شهادات شرف لأصحابها والإذن بها علامة ارتفاع منازلهم عند الرب . . ومنتهى التشريف أن ينجو الناجى عن لسان هؤلاء الأنبياء وأن يتناول براءته من أيديهم .

هذا هو المعنى الإسلامى للشفاعة والتوسل . وهو شىء آخر غير ما يجرى فى أضرحة الأولياء من تقبيل النحاس وإلقاء الخطابات فى المقام والصراخ الساذج من المكلومين .

مدد يا رفاعى

نظرة يا سيد

إيدك معانا يا بدوى

همتك معانا يا قطب الرجال

أغثنا يا رسول الله

الشفا بإيدك ياسيدى إبراهيم يا دسوق

أنا جايلك يا حسين ماترجعنيش إيدى فاضية
يا ست . . الأمر أمرك .

وقد نسى الكل التوجه إلى الله وتشبثوا بقضبان نحاسية يغمرونها بالدموع . . وجاء الفلاحون من أقاصى الريف وضربوا خيامهم كالحجيج يبيتون ويأكلون ويشربون . . وفى الموالد ترقص الغوازى ويغنى صاحب الربابة ويستعرض عنتر عضلاته . . ويتحول السامر إلى سوق لبيع المسابح والزمامير والحمص واللب ولبيع الأعراض أحياناً . . ومدد يا سيد . . وكله بركة .

تلك جاهلية لا يعرفها الإسلام . . وشعوذات وسخافات تجب محاربتها والقضاء عليها .

وقبور الأولياء لها حرمة .

وحدود الزيارة أن يقرأ الزائر الفاتحة ويترحم على ساكن الضريح ويجدد عهده للرسول وعترته بالعمل الصالح والاقتداء والاتباع ويدعو الله ببركة نبيه أن يجعل له نصيباً فى شفاعته لا يتشبث بنحاس ولا يطوف بمقام ولا يترامى على ضريح ولا يعدل بوجهه عن الله لحظة .

ذلك هو موقف الأدب فى حضرة الأولياء .

فليس عند أحد من الأولياء مدد .

إنما المدد يأتى من الله وحده .

والفتح من عند الفتاح . . هو الذى يستغاث وحده وترتجى عنده المقاصد .

ومقام الشفاعة هو تشريف الرسول بأن يكون مناولا للفتح . . من مشى على قدمه أخذ من يده ، ولكن المعطى هو الله . . والإذن بالشفاعة والعطاء من عند الله .

وهى شفاعة لا تبدل حكماً ولا تتخطى قضاء ، وإنما هى تنفيذ لما سبق فى حكم الله منذ الأزل . . وهى لا تصل إلا لمستحق .

لا تجدى شفاعة لكافر ولو اشترك فيها كل الأنبياء وهو أمر لا ينبغى لهم بحكم مقامهم .

يقول طالبو الشفاعة والمستصرخون والمتوسلون يوم القيامة حينما يذهب عنهم الروع بعد الفزع الأكبر . . يقولون للملائكة . . ماذا قال ربكم فى مسألتنا فيقول الملائكة . . الحق . .

« الحق » . . كلمة واحدة يرد بها الملائكة . . فلا شىء فى هذا اليوم غير الحق . . لا تجدى شفاعة فى غير حق . . ولا إذن لشفاعة فى غير حق . . ولا مكان لفوضى الوساطة بالمعنى الذى نعرفه فى الدنيا ، يقول القرآن يصف هذا الموقف العصيب :

« حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » . ٢٣ — سبأ

أى تعالى ربنا أن يتخطى حكمه حكم وأن يتجاوز الحق بأى سبيل .

وفى إطار هذا المعنى الجليل تفهم الشفاعة ويفهم التوسل .

قطع اليد فى القرآن

السارق تقطع يده فى مكة وتقطع رقبته فى موسكو ويعاقب بالسجن فى أغلب دول العالم .

ونتيجة تراخى القوانين الخاصة بالسرقة وعدم انضباطها فى أكثر مدن العالم أصبحت السرقة هى الحرفة المفضلة لنجوم المجتمع وللسادة الحكام أمثال السيد تاناكا رئيس وزراء اليابان صاحب فضيحة لوكهيد أو السارق الآخر صاحب السمو والفخامة زوج ملكة هولاندا الطرف الثانى فى نفس الفضيحة . . وأصبحت المبالغ المسروقة أرقاماً خيالية من ملايين .

لقد اختل نظام العالم تماماً وأصبح الجاه والرفعة من نصيب اللصوص والذل والهوان والبؤس من نصيب الشرفاء ومع ذلك نأخذ على القرآن أنه حكم بقطع يد السارق ولا نأخذ عليهم فى روسيا أنهم يقطعون رقبته وينشرون خبر إعدامه فى صحفهم الرسمية .

وبرغم بشاعة وغلظة قطع اليد فإنها مازالت أكثر الأساليب قطعاً لدابر الجريمة وأكثرها توفيرا للمال والدم فى المدى البعيد . . فلم يطبق هذا الحد فى عهود الخلفاء الأربعة الأوائل إلا أربع مرات وكانت هذه المرات الأربع كافية لحسم الأمر على مدى السنوات الطويلة التى حكم فيها هؤلاء الخلفاء فانتشر الأمن فى ربوع الصحارى والنجوع والوديان التى كانت مرتعاً

لقطاع الطرق وعصابات السلب والنهب . . وأمكن توفير دماء غزيرة كان مؤكداً لها أن تسيل وأمكن استنقاذ ضحايا لا عداد لها طوال تلك السنين بقطع هذه الأيدى الأربع فقط .

ولم ينفرد القرآن بهذا الحد القاسى وإنما جاء الحد نفسه فى التوراة .

وجاء فى الإنجيل برغم رقته .

« إذا أعثرتك يدك فاقطعها وإذا أعثرتك عينك فاقلعها » .

ومعلوم أنه لا يجوز تطبيق هذا الحد فى شبهة أو فى مجاعة أو فى ظروف حرب ولا يجوز تطبيقه على سارق سرق ليأكل أو رجل مختل العقل كما لا يجوز تطبيقه فى مجتمع تشيع فيه المظالم وإنما لابد أن يواكب القانون نظام إسلامى عادل لتوزيع الثروات وتشغيل الأيدى المتعطلة .

ومع ذلك ففى آية قطع اليد القرآنية مجال للتأمل والنظر .

يقول المستشار مصطفى كمال المهدوى : إن الآية لا تذكر سارقاً أى سارق وإنما هى تأتى به معرفاً بأل التعريف فتقول . . السارق والسارقة !

« والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُما جَزاءً بِمَا كَسَبا نَكالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ٣٨ – المائدة

وأل التعريف لا تأتى فى القرآن عبثاً . .

ولا يوجد فى القرآن حرف زائد إلا لحكمة ومعنى مقصود وسبب .

وفارق كبير بين كلمة « سارق » وكلمة « السارق » .

و« السارق » مثلها مثل الفارس والكاتب، حينما تأتى بأل التعريف فنحن لا نطلق « الفارس » على من ركب الفرس مرة واحدة وإنما على من احترف الركوب وعرف به .

وكذلك لا نطلق اسم « الكاتب » على من كتب ذات مرة بضع

كلمات فى ورقة ولا نطلقه إلا على من احترف الكتابة وعاودها واصطنعها وعرف بها .

وكذلك السارق الذى تقطع يده فى القرآن هو محترف السرقة . . الذى يرتكبها ويعاودها . . أما الذى يسرق مرة فى ظرف انفعالى فلا تنطبق عليه الآية وإنما يؤخذ بقوانين الردع الجنائية السارية وينذر بقطع يده إذا عاود السرقة . . فإذا عاد إلى السرقة بعد خروجه من السجن فهو « السارق الحق » الذى يقع تحت طائلة الآية . . هذا هو تحليل الأخ المستشار مصطفى المهدوى وهذا هو فهمه .

وكذلك « الزانية والزانى »

فقد ورد كلاهما فى القرآن بأل التعريف .

وأل التعريف تعنى الرجل والمرأة اللذين أخلدا إلى الزنا واتخذاه سلوكاً مختاراً أو حرفة أو حياة ولا تعنى رجلا سقط ذات مرة فى لحظة ضعف تحت إغراء عارض فقارف الزنا ثم ندم فمثل هذا الرجل ومثل هذه المرأة لا يذكران بأل التعريف وإنما هما محض زان وزانية وتنطبق عليهما الآية الأخرى من سورة النساء .

« وَالَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإنْ تَابا وَأَصْلَحا فأعْرِضُوا عَنْهُمَا إن اللهَ كانَ تَوَّاباً رَّحِيمًا » ١٦ – النساء

ونوع الإيذاء هنا ودرجته متروك لولى الأمر .

ويدخل تحت الإيذاء . . التشهير والمقاطعة والضرب والسجن والحرمان من الحقوق .

فإذا عاود الاثنان الزنا واصطنعاه فإنهما يقعان تحت طائلة الآية :

« الزَّانِيَةُ والزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما

رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .
٢ – النور

ومما يؤكد هذا الفهم أن شرط إقامة الحد هو أن يشهد أربعة شهود عيان على الزانية والزانى (يشهدون أنهم عاينوا الإدخال بالفعل) . . وهو أمر لا يمكن أن يحدث إلا فى بيت دعارة وعلى مستوى احتراف . . لأن الذى يقارف الزنا فى لحظة ضعف وتحت إغراء عارض يختلسه اختلاساً من وراء العيون ولا يمكن أن يستعرضه أمام جمهور . . فالآية نزلت لتقيم الحد على داعر وداعرة محترفين وليس على مراهق غلبته غريزته فى لحظة غواية . . فهذا يكفى لردعه أن يترك لولى الأمر يؤذيه بالصورة التى تناسب درجة انحرافه .

أما الزوجة التى تزنى فعقابها السجن .

« واللَّاتِى يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً »
١٥ – النساء

والإمساك فى البيت هو السجن حتى الموت أو حتى يجعل الله لها سبيلا .

أما الرجم فلم يرد به حرف واحد فى القرآن .

ولا توجد فى القرآن آية رجم واحدة

وإنما قرأنا عن الرجم فى روايات السيرة . . وهى روايات لم تسلم من التغيير والتبديل . . وليس لها ما للقرآن من حفظ وتوثيق مطلق .

والله تعهد بحفظ القرآن من التغيير والتبديل .

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »

ولم يتعهد بحفظ روايات السيرة .

فما جاء بالسيرة اجتهادات تحتمل الخطأ والنسيان والإضافة والمبالغة .

ولو أراد الله الرجم وهو حد خطير لما أغفل ذكره فى كتابه المحكم الذى لم يفرط فى شيء وإنما الرجم كان من الحدود التوراتية .

وقد حفلت التوراة بالرجم . . الزانى يرجم والزانية ترجم وعاق أبويه يرجم والمرتد عن دينه يرجم والذى يسب دينه يرجم وإذا استعمل رجل حيواناً لقضاء شهوته فإنه يرجم كما يرجم الحيوان ولا يؤكل لحمه . . وكذلك إذا نطح الثور رجلا فإن الثور يرجم ولا يؤكل من لحمه . . وكل التوراة رجم فى رجم . . ولا ندرى هل أنزلت هذه العقوبات بالفعل أم أضافها المحرفون . . أم هى غلظة اليهود الذين كانوا يرجمون كل خلق الله . . وما زالوا يرجمون كل خلق الله .

كل ما نعلمه أن القرآن لم ترد به آية رجم واحدة

وأن ما جاء فى كتب السيرة يمكن أن يكون محل نظر .

* * *

وكذلك يقول المستشار مصطفى كمال المهدوى إن رخصة تعدد الزوجات التى جاءت فى القرآن جاءت بشرطين :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً » ٣ – النساء

والشرط الأول هو :

« وإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى اليَتامَى »

فلا يصح التعديد لمجرد الشهوة وإنما أنت تضم إلى زوجتك الأولى امرأة أخرى هى أم أيتام تخاف على أيتامها التشرد فتضمها زوجة ثانية

وتعول أولادها وهو عمل صالح . . وكذلك الثالثة والرابعة . . وأنت فى هذه الحالات تنقذ أيتاماً من الرصيف ولست الرجل الشهوانى الذى يجمع الشقراء إلى جوار السمراء إلى جوار البيضاء .

والشرط الثانى هو العدل .

وإن لم تستطع أن تعدل فى الإنفاق فعليك بالاكتفاء بالواحدة والإسلام بهذا المعنى دين عطف ورعاية لا دين شهوة واستمتاع .

هذا هو فهم الأستاذ المهدوى وهو يخالف ما فهمه كثرة الفقهاء .

وبنفس المعنى يفهم الأخ مصطفى المهدوى حكاية « ما ملكت أيمانكم » فهو لا يفهمها بأنها رخصة بالمسافحة للجوارى والسرارى وأسيرات الحروب والرقيق وإنما هو زواج . . ولا تستحل النساء فى القرآن إلا بالزواج والمهر بدليل الآيات :

« ومَن لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ واللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحاتٍ ولا مُتَّخِذاتِ أَخْدَانٍ » . ٢٥ – النساء

والآيات صريحة .

من لم يستطع أن يصاهر الحرائر ويدفع مهورهن فليتزوج من السرارى ويدفع مهورهن ولا يسافح ولا يخادن .

السفاح والمخادنة منهى عنهما فى القرآن ولا رخصة فيهما .

وإنما إن أراد الغنى أن يزيد على زوجاته الأربع فمما ملكت يمينه من جواريه زواجاً لا سفاحاً فيعدد كيف شاء . . لأن التعدد هنا عمل صالح وإنسانى فهو يعتق به رقبة ويضمها زوجة إلى فراشه بعد أن كانت جارية .

ولا شك أن الأخ مصطفى المهدوى قد اختلف بذلك عن الفهم السلفى لهذه الآيات وحجته فى ذلك أنه إذا احتملت الآيات أكثر من وجه فعلينا أن نفهمها على أكرم وجوهها فلا يصح أن نفهم القرآن فهماً شهوانيا وهو الكتاب الذى حرم النظرة .

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ » . ٣٠ النور

« وَقُلْ لِلْمُومِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ » . ٣١ النور

مثل هذا الكتاب العفيف كيف يفهم منه المسافحة والاستباحة والمخادنة إنما يمتحن الله بآياته المشتبهات القلوب فيرى منها صاحب الهوى الوجه الذى يناسب هواه ويرى منها الرجل العفيف وجهها الحق العفيف .

صدق الله العظيم فى قوله عن كتابه بأنه يضل به ويهدى :

« يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً وما يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ » ٢٦ – البقرة

فالآيات واحدة وإنما تختلف التفسيرات باختلاف العقول والأهواء .

وتفسيرك يكشف إيمانك كما يكشف ضلالك كما يكشف هواك إن كنت صاحب هوى ولا يستغرب أن تختلف التفسيرات وأن يشيع ويغلب تفسير باطل وإنما تقتضينا التقوى وخشية الله أن نتبع من آيات كتابه أحسن ما نفهم من وجوهها .

قال تعالى فى محكم تنزيله :

« وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ » . ٥٥ – الزمر

ولا شك أن كل ما أنزله ربنا حسن . . وإنما تختلف وجوه فهمنا نحن وعلينا أن نتبع أحسن هذه الوجوه . . فهذا مراد ربنا .

ونظر الأخ المهدوى إلى القرآن جدير بالاستماع والتأمل والبحث ولكن لنا تعليق . . فاشتراطه فى تعدد الزوجات أن تكون الزوجة الثانية أماً

لأولاد هو فهم يخالف تفسير الرسول عليه الصلاة والسلام للآية .

وتفسير الرسول عليه الصلاة والسلام للقرآن ملزم لنا ولجميع المسلمين فهو القرآن الحى المتجسد الذى يمشى على الأرض . . ومعلوم من سيرة الرسول الثابتة أنه تزوج زينب بنت جحش على زوجاته ولم تكن أماً لأولاد ولم يكن لها أيتام يخشى عليهم الرصيف كما تزوج عائشة بنت أبى بكر وكانت ثالث زوجاته وكانت بكراً . . كما أنه عدد الشقراء إلى جوار السمراء إلى جوار البيضاء . . تلك هى السيرة الثابتة بالإجماع ولا أوافق الأخ مصطفى كمال المهدوى على التشكيك فى السيرة بحجة عدم تعهد الله بحفظها فذلك يفتح الباب لفتنةلا تنتهى، يمكن أن تصل إلى التشكيك فى شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه،وإنما حسبنا التدقيق وليس التشكيك .

وكذلك لا أوافق الأخ المهدوى على عدم حل الجوارى والرقيق والسرارى وعلى لزوم الزواج بهن . . وأستدل على ذلك بصريح القرآن حينما يتكلم عن المؤمنين قائلاً .

« وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين » .

٢٩ – ٣٠ – المعارج

ويفرق القرآن بين الأزواج وبين ملك اليمين فى الآية ويقول بأن المؤمن غير ملوم فى إتيان ما ملكت يمينه . .

والسبب فى هذه الرخصة واضح وهو أن النساء المسلمات كن يقعن أسيرات فى الحروب وكان الكفار يستبيحونهن . . فكانت تلزم المعاملة بالمثل فيعطى المسلم الرخصة فى استحلال ما يقع فى يده من أسيرات الكفار .

وظل هذا الوضع قائماً حتى نزلت الآية بعدم جواز استبقاء الأسرى وأن على المسلم أن يطلب الفدية فى أسيرة أو يحن عليه بإطلاق سراحه .

« فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » محمد – ٤

أما وجهة نظره فى إعفاء السارق لأول مرة من الحد رغم ثبوت التهمة عليه فأمر لا يجرؤ عليه قاض مسلم بعد حديث الرسول الثابت فى توسط زيد لإعفاء المخزومية . .

« والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ولم يقل لو أنها سرقت للمرة الثانية .

والمقصود من حد السرقة هو التخويف والردع . . والإعفاء من الحد فيه تشجيع ولا يتناسب مع الردع والإرهاب .

أما وجهة نظره فى الزنا فمعقولة واشتراط القرآن لشهود أربعة شهود الإدخال هو شرط يؤيد وجهة نظره فى أن هذا أمر لا يقع إلا لمحترف دعارة وليس لحدث استبد به انفعال اللحظة .

ولكن ما بال الأخ المهدوى لو ذهب هذا الحدث واعترف بذنبه وطلب توقيع الحد عليه ليتطهر وكان عاقلاً رشيداً صادقاً . . ماذا يقول المهدوى فى ذلك .

أما كلامه عن إنكار تطبيق حد الرجم فى السيرة فأمر متروك لعلماء السيرة فإن كان ثابتاً ومحققاً عن الرسول أنه رجم فلا نملك إلا الطاعة .

ولكن لى تحفظ واحد فى حدود الزنا أنه لا بد من إتاحة مناخ اجتماعى نظيف للشباب قبل رجمه أو جلده . . أما المسارعة بالجلد والرجم فى الوقت الذى يدعو فيه الغناء الفاحش وروايات الجنس العارى فى مسارح أجهزة الإعلام ودور السينما الحكومية وتليفزيون الدولة وإذاعتها كل شاب صباحا ومساء إلى إتيان الزنا ومزاولة العناق والقبلات والاستمتاع بالمضاجعة جهاراً نهاراً . . المطالبة بتطبيق الحدود قبل تطهير هذا الجو . . هو ظلم ليس من الإسلام فى شىء .

ونفس الكلام أقوله للمطالبين برجم المرتد عن دينه . . فالمرتدون اليوم عن الإسلام هم فى حقيقة الأمر ليسوا مرتدين . . وإنما هم لم يكونوا مسلمين حقاً فى أى يوم من الأيام ولم يعرفوا من الإسلام إلا قشوره . ولم يروا للإسلام قدوة تحببهم فيه . . وإنما أخذوا إسلامهم وراثة ودون تفكير أو اختيار أو بصيرة . . فهؤلاء لم يدخل الإسلام قلوبهم ولا عقولهم ولو أنه دخل لما خرج أبداً ولما ارتدوا أبداً . .

علموا الناس الإسلام وأعطوهم القدوة . . أولى من هذه الطنطنة بالرجم والقتل والشنق . .

ودين الإسلام دين إقناع ومنطق وسماحة وليس دين إرهاب . . وقد انتشر الإسلام بالإقناع وبالحب وبالقدوة ولم ينتشر بالإرهاب ولا بالرصاص ولا بالرجم بالحجارة .

الفهرس



صدر للمؤلف

١ – الله والإنسان
٢ – أكل عيش
٣ – عنبر ٧
٤ – شلة الأنس
٥ – رائحة الدم
٦ – إبليس
٧ – لغز الموت
٨ – لغز الحياة
٩ – الأحلام
١٠– أينشتين والنسبية
١١– فى الحب والحياة
١٢– يوميات نص الليل
١٣– المستحيل
١٤– الأفيون
١٥– العنكبوت
١٦– الخروج من التابوت
١٧– رجل تحت الصفر
١٨– الإسكندر الأكبر
١٩– الزلزال
٢٠– الإنسان والظل
٢١– غوما
٢٢– الشيطان يسكن فى بيتنا
٢٣– الغابة
٢٤– مغامرة فى الصحراء
٢٥– المدينة (أوحكايات مسافر)
٢٦– اعترفوا لى
٢٧– ٥٥ مشكلة حب
٢٨– اعترافات عشاق
٢٩– القرآن محاولة لفهم عصرى
٣٠– رحلتى من الشك إلى الإيمان
٣١– الطريق إلى الكعبة
٣٢– الله
٣٣– التوراة
٣٤– الشيطان يحكم
٣٥– رأيت الله
٣٦– الروح والجسد
٣٧– حوار مع صديق الملحد
٣٨– الماركسية والإسلام
٣٩– محمد
٤٠– السر الأعظم
٤١– الطوفان
٤٢– الأفيون
٤٣– الوجود والعدم
٤٤– من أسرار القرآن
٤٥– لماذا رفضت الماركسية
٤٦– نقطة الغليان
٤٧– عصر القرود
٤٨– القرآن كائن حَىّ
٤٩– أكذوبة اليسار الإسلامى
٥٠– نار تحت الرماد
٥١– المسيخ الدجال
٥٢– أناشيد الإثم والبراءة
٥٣– جهنم الصغرى
٥٤– من أمريكا إلى الشاطئ الآخر

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
روايات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .
رحلات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢ .

حازت رواية «رجل تحت الصفر» على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠